الفصل الخامس

وطنية هدم الدين والقيم

- خلق الصراع بين العرب والترك
- إشكالية العروبة والإسلام
- الحوار القومي الإسلامي
- قومية فصل الدين عن الدنيا
- قومية الاستبداد العربي والتركي
- دور الوطنية والقومية في هدم الدين

استغلال الروح القومية للعرب ضد عنجهية الترك الحاكمين

كيف استطاع بلفور خداع القيادات العربيـــة؟

ظهرت الروح القومية في العرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وكانت ظروفها شبيهة بالظروف التي نشأت فيها القومية الفارسية في صدر الإسلام، فكما أن الشعوبية كانت نتيجة عنجهية العرب الجاهلية، كانت الشعوبية العربية كذلك أثرًا من آثار عنجهية الترك الحاكمين.

كان العرب والترك يلتقون عند الإسلام الذي يوحد بينهم ويسوي بين أفرادهم، والذي تتلاشى عنده الأحساب والأنساب، فلما صاح بعض الترك مفاخرين بطورانيتهم استيقظ في العرب فخرهم بمجدهم التليد، وكان زعماء هذه الحركة القومية ينادون بتحطيم السيد التركي ثم إنشاء مملكة عربية تنتظم أقطارها المستقلة في اتحاد يرأسه زعيم ديني كبير، ولكن هذه الحركة باءت بالفشل في حياة السلطان "عبدالحميد" ففر منهم عدد إلى مصر وفريق آخر إلى فرنسا، وألف الذين اتجهوا إلى مصر الجمعية المركزية ونشطوا في الكتابة والتأليف، وكان منهم (عبدالحميد الزهراوي، عبدالرحمن الكواكبي، محمد رشيد رضا، حقي العظم، ومحب الدين الخطيب)، وأنشأ الذين لجأوا إلى فرنسا الجمعية الوطنية العربية في سنة ١٨٩٥ فأذاعت سنة ١٩٠٦ منشورًا موجهًا إلى الدول العظمى تبين فيه أغراض العرب "امبراطورية عربية يرأسها سلطان عربي ذو حكومة دستورية حرة بينما تكون ولاية الحجاز مملكة مستقلة يحكمها ملك جامع بين كونه ملكًا وخليفة للمسلمين"، وبذلك تنحل - حسب زعمهم - العقدة الكبرى في الإسلام وهي "التفريق بين السلطتين المدنية والدينية"، ثم عقدوا مؤتمرًا عربيًا سنة ١٩١٣ حضره مندوبون من الجمعية اللامركزية في مصر، ورأسه أحدهم وهو "عبدالحميد الزهراوي" ووضعت الحكومة الفرنسية قاعة الجمعية الجغرافية تحت تصرفهم، ثم نشبت الثورة المسلحة في الحجاز واليمن سنة ١٩٠٥ ولم تستطع الحكومة التركية أن تقضي عليها القضاء الأخير.

وأسقط السلطان "عبدالحميد" سنة ١٩٠٨ وآلت مقاليد الحكم في تركيا إلى أعضاء حزب الاتحاد والترقي الذين سيطروا على سياسة الدولة، ولم يعد للخليفة إلى جانبهم إلا اسم الخلافة وزخرف السلطان، وبسقوطه انتهت السياسة الإسلامية وبرزت العصبية القومية التي حاربها "عبدالحميد" بكل جهده أيام حكمه.

اندفع الاتحاديون في سياسة التتريك وسلخ العرب من لغتهم ومن طابعهم الحضاري، فشرع العرب في تأليف الجمعيات السرية في الشام والعراق للدفاع عن حقوق العرب ولإعدادهم للتخلص من الترك، بينما كان المبعدون من زعمائهم يواصلون جهودهم في فرنسا ومصر، وتمادى الاتحاديون وحالفوا الألمان في سبيل تحقيق ما يحلمون به من سيادة الطورانيين فزجوا بتركيا في حرب لا مصلحة لها فيها، على الرغم من معارضة الخليفة "محمد الخامس ـ رشاد" وقد توفى "محمد رشاد" قبيل نهاية الحرب وخلفه "محمد وحيد الدين" الذي فرضه الكماليون عندما دخلوا العاصمة.

ارتكب "جمال باشا" ـ أكثر الاتحاديين تطرفًا لعصبيته الطورانية ـ فعلته الحمقاء حين بطش بمن وصلت إليه يده من زعماء العرب، فذهبت البقية الباقية من إخلاص العرب للترك.

نفاق رسائل مكماهون ـــ حسين

حالف الشريف "حسين" الإنجليز وربط مصيره بهم، فدخل معهم في مفاوضات رسمية وتبادل الرسائل مع ممثلهم في مصر "السير آرثر مكماهون" مساومًا على الشروط.

من رسائل مكماهون رسالة مؤرخة فى ١١ شوال سنة ١٣٣٣هـ ـ ٣ أغسطس سنة ١٩١٥م: (فنحن نؤكد لكم أقوال فخامة اللورد كتشنر التي وصلت سيادتكم على يد "على أفندي أصفر" وهو تاجر من حي الجمالية بمصر، صهر حسين رومي الموظف بدار المندوب السامي البريطاني وهو من البهائيين الذين يعتمد عليهم الإنجليز" والرسالة كان موضحًا بها رغبتنا في استقلال بلاد العرب وسكانها مع استصوابنا للخلافة العربية عند إعلانها وأنا أصرح هنا مرة أخرى بأن جلالة ملكة بريطانيا العظمى ترحب باسترداد الخلافة على يد عربي صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة).

أما فهم الشريف "حسين" للمسألة العربية فكان فهمًا إسلاميًا، وهذا واضح من طمعه في الخلافة، ومن رسائل "مكماهون" وقد صور "لورانس" الشريف حسين بأنه كان مسلمًا ورعا كثير التحدث عن الخلافة وعن مستقبل المسلمين.

ومن أمثلة رسائل "مكماهون" التي بدأ بملق قد يتجاوز سبعة أسطر ثم تختم بمثل هذا الملق ليس بينها إلا كلام غامض لا يتضح فيه إلا سوء نية الإنجليز وسذاجة زعماء العرب آنذاك، وفيما يلي مقتطفات من هذه الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم: إلى سماحة ذلك المقام الرفيع ذي الحسب الظاهر والنسب الفاخر، قبلة الإسلام والمسلمين معدن الشرف، وطيد المحتد سلالة نهضة الوحي المحمدي، الشريف بن الشريف صاحب الدولة، السيد الشريف حسين بن علي أمير مكة المعظم زاده الله رفعة وعلاء آمين.

بعدما يليق بمقام الأمير الخطير من التجلة والاحترام، وتقديم خالص التحية والسلام وشرح عوامل الألفة وحسن التفاهم والمودة الممزوجة بالمحبة القلبية أرفع إلى دولة الأمير المعظم أننا تلقينا رقيمكم المؤرخ ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٣٤...)الخ.

وما تختم به الرسائل: (وفي الختام أبث دولة الشريف ذا الحسب المنيف والأمير الجليل كامل تحيتي وخالص مودتي وأعرب عن محبتي له ولجميع أفراد أسرته الكريمة راجيًا من ذي الجلال أن يوفقنا جميعًا لما فيه خير العالم ومصالح الشعوب فبيده مفاتيح الأمر والغيب يحركها كيف يشاء، ونسأله تعالى حسن الختام والسلام). هذا وقد أرسل الإنجليز رسالة أخرى من بلفور وزير الخارجية إلى الشريف حسين يعدونه بخلافة عربية بعد الثورة على تركيا، وقد خدع الشريف حسين بذلك، وقد نشرت صورة الرسالة في كتابي "الغزو الفكري للتاريخ والسيرة".

هذا ولم يلبث الشريف حسين أن أعلن الثورة العربية في "٩ شعبان سنة ١٣٤٥ ـ ١٠ يونيو ١٩١٦" وتدفقت المؤن والدواب والذخائر والذهب، تحملها السفن الإنجليزية إلى الموانئ العربية، وسيطر الإنجليز على الجيش العربي عن طريق رجالهم من الإنجليز الذين يعملون في المخابرات، ومن العرب الذين فروا من الجيش التركي ليلتحقوا بالجيش العربي الجديد.

وطنيــة الاستعمــار

لقد كان فهم الشريف حسين الإسلامي للمسألة العربية هو السبب في انصراف الإنجليز عنه منذ اللقاء الأول بينه وبين "لورانس" واتجاههم إلى ابنه "فيصل" واعتماده عليهم في زعامة الثورة العربية ضد تركيا الخلافة، فالإنجليز لا يريدون هذه الوطنية الإسلامية ولكنهم ينشدون وطنية قومية، وذلك ما صرح به "لورانس" بقوله: "وأخذت طول الطريق أفكر في سوريا، وفي الحج وأتساءل: هل تتغلب القومية ذات يوم على النزعة الدينية؟ وهل يغلب الاعتقاد الوطني الاعتقاد الديني؟ وبمعنى أوضح هل تحل المثل العليا السياسية مكان الوحي والإلهام وتستبدل سوريا بمثلها الأعلى الديني بمثلها الأعلى الوطني؟ هذا ما كان يجول بخاطري طول الطريق"، ولقد تحقق للورانس جانب كبير من أحلامه ووجدنا بين الأعراب من يكمل رسالته. فها هو الدكتور محمد خلف الله يحث القوميين على عدم التخلي

عن العلمانية عند الربط بين الإسلام والقومية العربية حتى يظل للمجتمع حرية الانطلاق بعيدًا عن الإسلام.

كان فيصل هو الزعيم الذي ينشده الإنجليز أو هو نبي الوطنية كما سماه "لورانس" فراح يبشر بهذه الوطنية في كل مكان، وينثر الذهب الإنجليزي مع خطبه فيجتمع من حوله فقراء البدو الذين كانوا يقسمون على الإخلاص له وللحركة العربية، ونال الفرنسيون والإنجليز من العرب كل ما يريدون على المستويين الشعبي والحكومي، فالشعب الجاهل كان فيهم من يرشد المحتل على أماكن وجود الجيش التركي الإسلامي، وكان آخر ما أدّاه الجيش العربي من الخدمات أن كفل لجيوشهم الأمن في نظرة الحلفاء والأصدقاء، وبذل الإنجليز للفرنسيين واليهود وعودًا أخرى، إذ اتفقوا مع الأولين على احتلال الشام ومع الآخرين على تحقيق أحلامهم باتخاذ فلسطين وطنًا قوميًا لهم، وقد اعترف "لورانس" بسوء نية الإنجليز في كتاب "أعمدة الحكم السبعة": "وقد كان واضحًا منذ البداية أن هذه الوعود المبذولة تصبح حبرًا على ورق في حالة انتصارنا"، "استطاع اللنبي بحكمته أن يحقق ذلك بخسارة تقل عن أربعمائة قتيل، وذلك باستغلال المعارضين لتركيا، وكم أنا فخور بالمعارك الثلاثين التي خضتها التي لم ترق فيها نقطة دم إنجليزي".

وقد كان جزاء العرب أن أدار الإنجليز السلاح في وجوههم وتنكروا لوعودهم فثاروا ضدهم وفشلت ثورة العرب على الإنجليز في العراق بعد نضال استمر خمسة أشهر بدأ في ١٩٢٠/٦/٣٠ سقط فيه أكثر من ثمانية آلاف عربي بين قتيل وجريح واضطر فيصل أن يغادر سوريا بعد أن اقتحمها الفرنسيون في ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٠، وكان أهلها قد انتخبوه ملكًا دستوريا عليها.

الدعوة إلى الجامعة العربية

بعد أن اتضح لزعماء العرب أن الوعد الإنجليزي لهم بإقامة خلافة إسلامية عربية كان خديعة، طالبوا بجامعة عربية، وكان معظم دعاة الجامعة العربية من دعاة الجامعة الإسلامية قبل الحرب أو من زعماء الحركة العربية الذين كانوا يتصورونها تصورًا إسلاميًا ويعملون لنقل الخلافة إلى العرب بخلاف الفريق الآخر من دعاة العصبية العربية الذين استقروا في باريس قبل الحرب وتوقف نشاطهم، إذ لم يعد للحكومة الفرنسية مصلحة معهم بعد أن سقطت الإمبراطورية العثمانية ووزعت تركة الرجل المريض.

أما في مصر فأصبحت الجامعة العربية صورة من صور تلك الجامعة الإسلامية النادرة، أو هي خطوة في سبيلها، أو على الأقل غير معارضة لها كما كان الشأن بالأمس.

وكان هناك فريق آخر لا يتصور الجامعة العربية إلا تصورًا قوميًا خالصًا أكثرهم من اللبنانيين، ومن دعاة القومية الذين كانوا يحاربون الجامعة الإسلامية في مصر وهم حزب الأمة الذي أصبح ممثلاً بعد الحرب في حزب الوفد والأحزاب التي انشقت عنه.

وقد تسابق الإنجليز والفرنسيون إلى احتضان الحركة الثائرة على تركيا منذ ظهورها وتنافسوا على توجيهها والسيطرة عليها، فبينما كان الإنجليز يحمون اللاجئين إلى مصر من زعماء هذه الحركة قبل الحرب كان ممثل الحكومة الفرنسية يقوم بحماية زعماء الحركات العربية في الشام، ويحول دون بطش الترك بهم يساعده في ذلك ويشد أزره ممثل الحكومة الإنجليزية، ولم يستطع جمال باشا "التركي" أن ينكل بهم إلا بعد أن رحل ممثلو الحكومتين عقب إعلان الحرب، ولقد كان هذا الرجل أيضًا من الذين انحرفوا بالمفهوم القومي التركي وجعلوه صنمًا يعذبون من أجله من ناهضه من العرب.

وكان الفرنسيون يحتضنون بعض الضباط العرب مثل نوري الشعلان الذي يصفه الجنرال كليبر بأنه كان مخلصًا لفرنسا حتى اللحظة الأخيرة من حياته، بينما كان الإنجليز يحتضنون البعض الآخر مثل نوري السعيد ومن معه والذين يصفهم لورانس بأنهم اليد التي ينفذ بها الإنجليز قراراتهم ويحققون رغباتهم.

جيوش العرب في الخيبة الكبرى

كان الإنجليز قد اتفقوا مع فيصل على أن تدخل جيوشه دمشق في الوقت الذي تدخل فيه جيوش الجنرال اللنبي لأن ذلك يوفر على الإنجليز كثيرًا من الجهد، ويضعهم في منزلة المنقذين للعرب فيُستقبلون استقبال الأبطال، بينما قد جاءوا لتقسيم تركة الرجل المريض فيما بينهم.

وكان الفرنسيون يعارضون اشتراك القوات العربية اشتراكًا فعليًا في القتال، لخوفهم من أن يؤدي ذلك إلى خلق جيش عربي يناوئهم ويحول بينهم وبين مطامعهم التي أقرتها بريطانيا في الاتفاق السري "سايكس بيكو"، ولكن الإنجليز طمأنوا الفرنسيين واشترك العرب في القتال حتى قال رسول القومية العربية اللادينية قسطنطين زريق: "بدأت الثورة العربية في يونيو ١٩١٦ وحارب العرب إخوانهم في الدين من الأتراك وتحدوا السلطة الشرعية لخليفة الإسلام في سبيل تحقيق قوميتهم العربية".

لجأت الدعوة للجامعة العربية إلى مصر فاحتضنتها ولكنها ظلت تحمل معها كل ظلالها القديمة، وكان من دعاتها من يمثل الأسلوب الفرنسي في السياسة، وكان بينهم من يُمثل وجهة النظر الإنجليزية وكان فيهم من يخلط بينها وبين الجامعة الإسلامية وبين الجامعة الشرقية، وفي سنة ١٩٢٢ تألفت جمعية الرابطة الشرقية وصرحت بأن غرضها غير سياسي ولا ديني وبأنها للشرقيين من كل الأديان، ولقد كان اتجاهها الإسلامي واضحًا في أعمالها.

الندم العربي

لقد ندم العرب على خيبتهم ولكن بعد فوات الأوان، فثار السوريون على الاحتلال الفرنسي في يونيو سنة ١٩٢٥ واستمرت الثورة حتى دخل الفرنسيون دمشق في ١٨ أكتوبر سنة ١٩٢٥ بعد أن ضربوها بالمدافع أربعًا وعشرين ساعة، فتركوا شوارعها وقصورها وأسواقها خرابًا، ولم يستتب لهم الأمر إلا في يوليو سنة ١٩٢٦ بعد أن بلغ عدد القتلى عشرة آلاف قتيل، فأدرك العرب أن تحالفهم مع بريطانيا ضد الخلافة الإسلامية العثمانية كان خطيئة لا تغتفر، ولكنهم حتى اليوم يخفون هذه الحقائق عن الشعوب المغلوبة على أمرها.

لم يكن الخطر الحقيقي الذي يهدد الجامعة العربية هو الاحتلال وما أقامه من خطوط وهمية اختلقها سايكس الإنجليزي وبيكو الفرنسي وذلك في المعاهدة السرية التي اتفقا فيها على اقتسام النفوذ والغنائم بين دولتيهما في أوائل الحرب، ولكن مصدر الخطر الحقيقي هو إيمان العرب أنفسهم بهذه الخطة الوهمية وتقديسهم لها ودفاعهم عنها وإخفاؤهم حتى اليوم أنهم صدقوا وعد الإنجليز لهم بإقامة خلافة إسلامية عربية بعد هدمهم الخلافة العثمانية، وهو الوعد الذي حمله بلفور إلى الشريف حسين.

لقد أعانت الدول المحتلة كل في منطقة نفوذها على تدعيم قداسة هذه التفرقة الجديدة في نفوس المسلمين بأسلوب علمي منظم، وذلك بمساعدتها على إحياء التاريخ القديم لكل قطر من هذه الأقطار ونشطت الخليات للبحث عن آثار الحضارات القديمة السابقة على الإسلام في كل من العراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن ومصر وفلسطين، فاستيقظت العصبيات الجاهلية وراح كل بلد يفاخر غيره بماضيه السابق على الإسلام، فأصبح الفراعنة رمز الظلم أصحاب حضارة عظمى وأصحاب المجد العريض وشغلت الصحف بالكلام عن الكشوف الأثرية الجديدة، ويا ليت القوم قد شغلوا أنفسهم بالعبرة من هذه الآثار، كما هو الشأن في بقاء أجساد الفراعنة حتى اليوم ليدرك الناس أن الله تعالى قد أمر البحر بإلقاء جثة فرعون موسى خارج البحر: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾. لم

يعرضوا ذلك بل عظموا حضارات البابليين والآشوريين والكلدانيين والحيثيين والفينيقيين والفراعنة، ووجدوا من فلاسفة العرب من يتغنى بهذه القوميات ويقدمها على الرابطة الإسلامية.

كانت أيدي الغربيين واضحة في هذه الجهود فقد عاش المسلمون دهورًا لا يهتمون بهذه الآثار القديمة ولا يعيرونها التفاتًا ولا يتحدثون عنها يتحدثون حين بهذا الأسلوب الجديد المليء بالتعظيم.

كانت النظرة السابقة أن هؤلاء طغاة وعتاة لا يثير الحديث عنهم شيئًا من الحماس أو الزهو في النفوس، بل قد يؤدي إلى الاحتقار كما هو الشأن في عتاة قوم عاد مع أنهم بلغوا الذروة في البناء والصناعة والقوة العسكرية، ومن اهتمام الغربيين بهذا التاريخ القديم ونبشه أن جمعية الأمم المتحدة نصت في صك انتداب بريطانيا في فلسطين في المادة ٢١: "أن تضع الدولة المنتدبة وتنفذ في السنة الأولى من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب قانونًا خاصًا للآثار والعاديات ينطوي على الأحكام التي تحافظ على الحضارات القديمة".

ومع هذا فلم تحافظ العراق على آثار الأكاسرة فمنها ما يظهر النصر الإلهي للمسلمين.

وكان أول ما اهتم به الفرنسيون أن ألغوا خلال الفترة الأولى لجانًا في دمشق وبيروت لكتابة تاريخ الشام القديم فكتبوا منه بعض تاريخ لبنان وأهملوا تاريخ سوريا، ومازال التقسيم الأوروبي للتاريخ حتى اليوم هو تاريخ الإنسانية كلها تردد ذلك مناهج التاريخ في العالم العربي وغيره فقسموا التاريخ إلى:

١ ـ القديم ويبدأ منذ معرفة الكتابة سنة ٣٢٠ وقبل ذلك هو ما قبل التاريخ وكان الأنبياء في هذه الفترة لا وجود لهم.

٢ ـ القرون الوسطى وتبدأ من سنة ٤٧٦م حيث سقطت روما في أيدي القوط.

٣ ـ التاريخ الحديث ويبدأ من سنة ١٤٥٣ وهو تاريخ سقوط القسطنطينية على يد السلطان العثماني محمد الثاني الملقب بالفاتح.

فهذا التقسيم يجعل سقوط روما على أيدي البرابرة الجرمان هو بداية القرون الوسطى التي تمتد حتى سنة ١٤٥٣ وهي قرون الظلام والظلم والجهل، بينما كانت القاهرة ودمشق وبغداد وقرطبة مركزًا للعلوم والآداب في هذه الفترة، وكانت المرأة تدرس علوم الفقه والقرآن والحديث، ويتلقى عنها الرجال وهي في أوروبا رسول الشيطان ويختلفون هل هي ذات نفس إنسانية أم لا؟ فهل جهل أوروبا وظلامها يظلم ويجهل معه العالم كله؟ إنّ هذا لشيء عجاب!

الإسلام والقومية العربية: جذور الصراع ومقوماته

أدى احتلال الدول العربية في القرن الماضي ومنتصف القرن الحالي إلى يقظة شعوبها وانشغال مفكريها بالبحث عن عوامل القوة التي تعيد إلى الأمة حريتها ووحدتها، فبرز صوت ينادي بالوحدة الإسلامية ويرى أن النهضة الوطنية لا تتم إلا عن طريق الدين، وكانت هناك دعوة ناشئة تنادي بالقومية العربية وتبعث الشعور بالوطنية الإقليمية في الأمة التي تقوم - حسب تصورهم - على الجنس لا على الدين.

كان لهذه الدعوة صدى في الاتجاه العالمي نحو فكرة القومية في القرن التاسع عشر، وكان المبشرون بهذه الدعوة في مصر متأثرين تأثرًا واضحًا بالتفكير الأوروبي، كما يبدو من خطبهم وكتاباتهم، وقد نشأت هذه الفكرة الجديدة نتيجة للتوسع الاستعماري الذي أعقب اكتشاف مساحات واسعة جديدة لم تمسها يد في أميركا وأوروبا وأواسط إفريقيا.

نشأت مجموعات من الكتل البشرية تقوم كل كتلة منها على أساس الاعتقاد بأنهم شعب واحد، وكان ذلك نتيجة للتقسيم المصطنع الذي قسمت فيه الجماعات البشرية في دول أوروبا الصغرى حسبما رأت الإمبراطوريات الكبرى أنه محقق لمصالحها.

وتعصبت كل مجموعة من هذه المجموعات لفكرة الوطن والقومية، واندفعت في حماس عاطفي بالغ لتحقيقه والدفاع عن كيانه واستنقاذه من الدائرة الكبيرة التي كانت تنطوي تحتها.

يقول الدكتور محمد محمد حسين عن أسباب هذه الحركة في العالم العربي: "وتستطيع أن تقول إن هذه الحركة الحديثة الجديدة قد نشأت قبيل الثورة العرابية، وكانت هذه الثورة صوتها القوي، ويدها الباطشة، كما تمثّلت هذه الدعوة في جمعية "مصر الفتاة" السرية التي تألفت في الإسكندرية، وأصدرت صحيفة باسمها للدعوة إلى الحرية، وكذلك في بعض الصحف الثائرة التي برزت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تنتقد سياسة الحكومة وتنادي بتفريطها في حقوق البلاد مثل صحيفتي مصر والتجارة لأديب اسحق، وفي الحزب الوطني الذي تألف قبيل الثورة العرابية، ويشير إلى التشابه بين جمعية مصر الفتاة التي حركت الثورة العرابية جمعية تركيا الفتاة التي حركت الثورة التركية التي انتهت بخلع السلطان عبدالحميد والتي كان الانقلاب الكمالي بعد الحرب العالمية الأولى امتدادًا لها.

وهذا التشابه بين الاسمين وبين الأهداف الثورية لكل منهما يأتى مع الاتفاق الزمني لأن مؤسس تركيا الفتاة على ما هو معروف هو مدحت المعاصر للثورة العرابية، يوحي بوجود صلة بينهم، ويؤيد وجود هذه الصلة بأن عددًا كبيرًا من أعضاء الحزبين التركي والمصري كانوا من الماسون، وأن الحزبين كليهما كانا متأثرين بمبادئ الثورة الفرنسية التي كان بعض زعمائها ومفكريها من الماسون أيضًا، ولكن الأدلة المادية القاطعة تعوزنا.

وإذا قدر للماسونية أن يكشف عنها الغطاء ويتضح ما يحوطها من غموض، فسوف يساعد ذلك كثيرًا على كشف الغموض الذي يحيط بهذه الحركات وبأمثالها، وسوف يغيّر ذلك كثيرًا من الآراء السائدة المكررة عن بعض رجال العصر.

لقد مضى نحو مائة عام على الثورة العرابية، ولم يظهر ما يظنه الدكتور محمد محمد حسين من وجود صلة بين جمعية تركيا الفتاة وبين رجال الثورة العرابية، وكذلك لم يثبت أن الماسونية هي التي حركت هذه الثورة، فيظل ما هو معلوم عنها هو عنوان الحقيقة.

يرى الشيخ محمد عبده: إن الدعوة إلى التعصب في الجنس الذي يسمونه الوطنية، إنما يروجه الإفرنج الذين يريدون أن ينقضوا بناء الملة الإسلامية ويفرقوا بين شعوبها ليسهل عليهم استعمارها، وإن المغفلين من المسلمين الذين اتبعوا هذا الدعوة الخبيثة قد هدموا الرابطة الدينية، ثم لم يستطيعوا أن يقيموا مكانها العصبية الجنسية التي يسمونها الوطنية.

كانت هناك دعوة جديدة للوطنية بالمعنى الأوروبي، لكن هذه الدعوة كانت مختلطة بالدين في أذهان كثير من الناس كما يبدو من كلمات محمد عبده، ولكن أصحاب هذه الدعوة لم يفكروا على كل حال في أن يستبدلوا بهذه الرابطة الرابطة الدينية أو يضعوها في مقابلها.

كذلك نشأت فكرة الوطنية وقتذاك، تحاول أن تجمع الناس حول المطالبة بحقوقهم ودعوة إلى الحرية وإلى هدم الاستعباد والظلم وطرد المستعمر، وهذه الأمور يحض عليها الدين، ويأمر بها، وبالتالي لا يوجد سبب لإبعاده، ولكن تطورت الفكرة على أيدي أصحاب الثقافة الأوروبية، وبدأت تهاجم الرابطة الدينية وتعتبرها مصدر شر وتفرقة بين أبناء الجنس الواحد، فتسبب هذا الفهم الجديد للوطنية في أن يهاجمها المتمسكون بالرابطة الدينية ويعتبروها خطرًا يهدد وحدة الأقطار الإسلامية.

كان قادة هذه الحركة الجديدة طائفة من الشباب المثقف اختلفوا في مناهجهم وأساليبهم، فمنهم من أسلفنا ذكرهم ممن يتخذون الدين والتعلق بالجامعة الإسلامية سبيلاً إلى ذلك وكان هذا الفريق ممثلاً في الحزب الوطني، وعلى رأسه مصطفى كامل، ومنهم من نهج منهجًا جديدًا جريئًا فنادى بالجامعة المصرية محاربًا فكرة الجامعة الدينية والرابطة العثمانية، وكان هذا الفريق ممثلاً في حزب الأمة أو شبابه المثقف بتعبير أدق.

وكلا الفريقين كان متأثرًا تأثرًا واضحًا بالتفكير الأوروبي، وبالدعوات القومية التي أصبحت بدع العصر في القرنين التاسع عشر والعشرين، بيد أن الفريق الأول قد صور ما نقل بما يلائم الظروف السائدة وقتذاك، وأحسن تقديمه لجمهور الناس الذين كانوا يؤمنون بالجامعة الإسلامية إيمانًا شديدًا.

أما الفريق الآخر من دعاة الوطنية، فقد كان مشتملاً على قسمين: قسم تُمثّله صحيفة المقطم التي تعمل لحساب الإنجليز، والقسم الآخر تُمثّله صحيفة الجريدة التي تنطق بلسان حزب الأمة.

أما صحيفة المقطم فقد كانت صريحة فى تأييد المحتل وتصويره في صورة إنسانية رائعة، ونجحت هذه الصحيفة في أن تغوي قلة من أعيان البلاد استهوتهم المصالح الشخصية، وسمت نفسها "الحزب الوطني الحر" وأعلنت الحرب على الحزب الوطني الذي كان يتزعمه مصطفى كامل متهمة إياه بالتدليس والتهريج وبالزج بالبلاد إلى هاوية الفراغ!

أما حزب الأمة، فقد كان قوامه جماعة من الباشوات الوصوليين وملاك الأرض فكان كل همهم السعي إلى مزيد من المال، وقد رأى هؤلاء أن السلطة الفعلية قد آلت إلى كرومر الذي يُمثل سلطة الاحتلال، وأن مصالحهم الشخصية تقضي أن يكونوا على وفاق معه.

ويقول الدكتور محمد حسين في كتابه "الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر": إن الوطنية بالمعنى الذي يدعو إليه كتاب حزب الأمة ومفكروه واضح التأثر بمذهب التحرر من ناحية أخرى، وكلا المذهبين كان له دعاة من المتفرنجين يروجون له في العالم الإسلامي، وكانت المقطم والجريدة مشتركتين في مبدأين أساسيين، أولهما: مهادنة الاستعمار والاقتصار على التدرج في المطالبة بالإصلاح، وثانيهما: محاربة فكرة الجامعة الإسلامية والدعوة إلى الانفصال التام عن تركيا وإنشاء دولة مصرية موالية للإنجليز.

وكان الحزب الوطني يختلف عن حزب الأمة في مبدأين أساسين، أولهما: هو عنفه في مواجهة الاستعمار وتكريس حياته لغرس بغضه وكراهيته في نفوس المصريين، وثانيهما: هو إقامة دعوته الجديدة إلى الوطنية وإلى القومية المصرية على أساس من الدين ومن الدعوة للتضامن بين الدول الإسلامية والتمسك بمعاهدة سنة ١٨٤٠م التي تمنح مصر استقلالها داخليًا وتعترف بالسيادة التركية كخلافة إسلامية، وكان الاحتلال يتحدث عن الوطنية بالمعنى الأول.

كان الإنجليز يحتضنون الدعوة التي يتزعمها شريف مكة الهاشمي للخلافة العربية لسبب عرف فيما بعد، كما كانوا يحتضنون أعضاء حزب تركيا الفتاة الاتحاديين الذي لجأوا إلى مصر، وأصدروا فيها صحفًا تهاجم السلطان عبدالحميد وتدخل كرومر لحمايتهم، ومنع تسليمهم للسلطان، كما تدخّل لحمايتهم حين ضبطت المطبعة السرية التي تطبع فيها منشوراتهم وأمر بكسر الأختام وأخذ ما فيها من أوراق.

كان للإنجليز من وراء كل ذلك هدف واحد هو إضعاف العاطفة الدينية وتقطيع أوصال المسلمين في مستعمراتهم، حتى يستطيعوا أن يواجهوهم واحدًا واحدًا، فالمصريون أحفاد الفراعنة، واللبنانييون أحفاد الفينيقيين، والعراقيون أحفاد البابليين والآشوريين، والجازيون أحفاد العرب الأمجاد وهم أحق الناس بالقيام على خلافة الإسلام الذي نبع من أراضيهم المقدسة.

حمى كرومر أعضاء حزب تركيا الفتاة الفارين من السلطان عبدالحميد إلى مصر ومنهم وليّ الدين بكر أحد أعضاء حزب الاتحاد، والذي كان يضم متفرنجي الترك والذي كان واقعًا تحت سيطرة اليهودية العالمية عن طريق الماسون والدونمة من يهود سالونيك المتسترين بالإسلام والمتظاهرين باعتناقه.

الإسلام والوطنية

إن هذه النزاعات تحاول أن تخلق صراعًا بين الدين والوطنية والقومية، بل وبين الدين والسياسة، لتصور الدين بأنه طقوس في المعبد يتولاه الكهان، أما الوطنية فلها رجال آخرون، وقد عالج الإمام حسن البنا هذا الخلل نظريًا وواقعيًا، فمن الناحية العملية كان أكبر محرّض على طرد الاستعمار من مصر والعالم العربي والإسلامي، وحارب أتباعه الاستعمار البريطاني على ضفاف القنال، والاستعمار الصهيوني في فلسطين، ومن الناحية النظرية تضمنت رسائله توضيح هذا الخلط، فكان من أقواله في اجتماع قيادات الإخوان المسلمين المنعقد في القاهرة يوم ٣ شوال ١٣٦٤هجرية والموافق ٨ سبتمبر ١٩٤٥ "لقد قضينا سبعة عشر عامًا في الإعداد

والاستعداد وأفهمنا الناس فيها الأمر على حقيقته من أن السياسة والحرية والعزّة من أوامر القرآن الكريم، وأن حب الأوطان من الإيمان".

وفي رسالة نحو النور، يقول: إن الأمم الناهضة تحتاج إلى الاعتزاز بقوميتها، كأمة فاضلة مجيدة لها مزاياها وتاريخها حتى تنطبع الصورة في نفوس الأبناء، فيفدون ذلك المجد والشرف بدمائهم وأرواحهم ويعملون لخير هذا الوطن وإعزازه وإسعاده، وهذا المعنى لن نراه واضحًا في نظام من النظم عادلاً فاضلاً رحيمًا كما هو في الإسلام الحنيف.

ويعرف الوطن في الإسلام بأنه القطر الخاص أولاً ثم يمتد إلى الأقطار الإسلامية الأخرى، فكلها للمسلم وطن ودار، ثم يرقى إلى الإمبراطورية الإسلامية الأولى التي شادها الأسلاف ثم يسمو حتى يشمل الدنيا كلها، وبهذا وفق الإسلام بين شعور الوطنية الخاصة والعامة، وحدد المواقف من الوحدة القومية والعربية والإسلامية بأن الإسلام فرض أن يعمل كل إنسان لخير بلده، ويحرص على وحدته القومية، والإسلام نشأ عربيًا، فإذا ذل العرب ذل الإسلام، فوحدة العرب لابد منها لإعادة مجد الإسلام وإقامة دولته، والإسلام قضى على الفوارق بين الناس، فيعتبر المسلمين أمة واحدة والوطن الإسلامي وطنًا واحدًا، ويؤكد أنه لا تعارض بين هذه الوحدات جميعًا، فكل منها يشد أزر الأخرى.

الإسلام البعثي القومي

وإذا كان الإسلام عند عفلق شيئًا مطلقًا وكل شيء غيره نسبي؟ فهل يطبق هذا على الإسلام في مواجهة العلمانية في التشريع والأخلاق والمجتمع؟

إن أقوال وكتابات عفلق قاطعة في أنه يقدم التطبيقات العلمانية الدستورية والقانونية على الإسلام، لهذا ووضعًا للنقاط على الحروف وحتى نواجه المسألة من جذورها نتساءل: هل يقبل الإسلام بهذا النوع "الدستوري الحقوقي"؟

يجيب الدكتور الأنصاري على سؤالنا هذا بقوله:

إن الإسلام ـ كما تجسد في القرآن والسنة، وكما عرفه التاريخ وطبقه المسلمون في حياتهم الدينية والدنيوية دون أدنى تمييز بين الجانبين ـ لا يعتبر العلمانية مسألة مطروحة بالنسبة إليه أصلاً، بل إن مصطلح العلمانية الذي لم يوجد في التراث الفكري العربي القديم مصطلح قلق غير واضح حتى في مدلوله اللغوي، فهل يعني كل ما هو دنيوي من زاوية الثنائية الأوروبية بين الدول والمؤسسة الدينية؟ أم يعني طالما أن اشتقاقه من الجذر (ع ـ ل ـ م) تأسيس الدولة على النظرة العلمانية المستقلة عن الدين، وبالتالي فهل العلمانية تعني العقيدة السياسية الاجتماعية المبنية على العلم أو المستمدة منه؟ والنظرة السلفية المعاصرة في الإسلام بحكم غريزتها

الدينية كانت سريعة وحاسمة في الحكم على "العلمانية" من منطلق إسلامي قاطع، إن مصطلح Secular لا يعني في قاموس السلفية غير معنى واحد هو بيت القصيد: "لا دينية هي ترجمة لـ Secular" وقد جرى الناس على ترجمتها بـ "علماني" أو "مدني" وهي تسميات مهذبة للادينية، تحاول أن تستر بشاعتها بأسماء سائغة مقبولة، فمن الواضح أن كل ما ليس دينيًا فهو لا ديني.

ولعل أدق وأوجز تعبير غربي عن هذه الحقيقة في الإسلام قول أحد الباحثين الغربيين: "الإسلام ليس دولة دينية، ولا هو دين للدولة، إنما الإسلام دين وهو في الوقت نفسه دولة".

حقيقة إسلامية البعث العفلقي

إنه كما كان لطفي السيد وطه حسين يعتبران أن الإسلام وكذا العروبة ليس إلا رافدًا للتراث المصري، ولا يمثلان شيئًا أكثر من ذلك، فإن ساطع الحصري في العراق كان يعتبر الإسلام رافدًا لغويًا للقومية العربية وتراثًا تاريخيًا فقط، لأن العروبة أو القومية العربية لديه تقوم على العامل اللغوي وليس الديني كما كان يصرح في كتبه ومقالاته.

وهذا هو المفهوم القومي للإسلام لدى ميشيل عفلق وكل رواد القومية العربية في إطارها النظري أو في كيانها البعثي وفي واقعها في الحكم في العراق وفي سوريا.

إن الإسلام لديهم ليس إلا رافدًا تاريخيًا وعاطفيًا أو روحيًا، وإن ميشيل عفلق لأنه مسيحي فهو يريد أن يستقطب المسلمين بالمحافظة على مشاعرهم ويقنع النصارى بأن عروبة الإسلام أو أسلمة العروبة لا تعني التحول عن القيم الأوروبية التي يظنون خطأ أنها ذات جذور مسيحية مع براءة المسيحية منها، ولكن عفلق وصف الإسلام وصلته بالعروبة بأوصاف ليست إلا زخرفًا من القول.

الصراع بين العروبة والإسلام

اتخذ الأستاذ الدكتور محمد جابر الأنصاري في كتابه "تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي" موقفًا صارمًا من افتعال البعض صراعًا بين العروبة والإسلام فيقول: "نجد العروبة في الشام والعراق مضادة للإسلام، لوجود تيارات مذهبية وعرقية وصراعات أضعفت المسلمين، بينما ظل الإسلام هو مدخل مصر إلى العروبة فكانت عروبة مصر أقل عرضة للتيارات الشعوبية التي تبعدها عن الإسلام، وظل المجتمع المصري متماسكًا موحدًا رغم كثرة أجناسه وذلك في ظل الإسلامية العربية، والشعب بكافة فئاته قد آمن أن دور مصر في العالم هو دور إسلامي، فحين قصف الفرنسيون دمشق سنة ١٩٢٥ وسحق الإيطاليون ثورة برقه

سنة ١٩٣٠ كانت ردود الفعل المصرية واحتجاجات المصريين دفاعًا عن الإسلام وليس باسم القومية العربية، ولا يوجد تناقض بين القومية العربية والإسلام إلا عند خصوم القيم الدينية، ففي سنة ١٩٣٠ نجد السياسي المصري المحنك محمد علي علوية مؤسس رابطة الاتحاد العربي وأحد زعماء الأحرار الدستوريين يقول في خطاب له بدمشق: "أنا لا أدري ما الحافز الذي حدا ذلك النفر الضئيل في مصر أن يصرخ محذرًا من أن تكون مصر واسطة عقد الأمم العربية، فلو كان هناك جنس فرعوني لحمًا ودمًا وعظمًا، فلم يكن الإنسان إنسانًا إلا باللغة والتفكير لا باللحم والدم والعظم، إن الإنسان خلق من تلك النفخة القدسية.. تطيروا ما مصر إلا عربية ولا تقوم إلا أنها عربية".

وكتب الأستاذ عبدالرحمن عزام ناقدًا فكر طه حسين: "لقد قبل المصريون دين العرب وعادات العرب ولسان العرب وحضارة العرب وأصبحوا عربًا في طليعة العرب، والواقع الآن أن مصر من جسم الأمة العربية في مكان القلب".

ويؤكد الدكتور عصمت سيف الدولة: إننا لسنا في حاجة إلى فلسفة حزب البعث وميشيل عفلق بشأن العروبة والإسلام ذلك أن العربي على السجية يغرس في ذريته قيمة المساواة بين الناس مهما تكن فروق اللون والجنس والمال، ويدرك العربي أن المساواة لا تعني أن يكون كل شخص مثل الآخر في كل شيء لا تعني إلغاء التفاوت في الموهبة والقدرة، بل تعني أن الناس تحكمهم قواعد عامة يخضع لها الجميع.

إن العربي مسلمًا كان أو غير مسلم يحكم على الأمور بمقياس واحد، فالكذب حرام والظلم حرام والسخرية حرام وأكل أموال الناس حرام، إن هذه القيم يعتز بها المسلم وغير المسلم، وهي قيم ومبادئ جاء بها القرآن الكريم.

كما يقول: إن العربي على سجيته لا يعترف أبدًا بأمانة الإثراء إذا لم يكن ثمرة عمل أو ميراثًا، فالثروة التي لا يُعرف مصدرها، يبادر العربي إلى إتمام أسباب الحصول عليها.

هذه القيم الحضارية أخذها العربي من الإسلام، كيف تأتي الثورة من غير عمل أو ميراث؟ وكيف تلد النقود نقودًا؟

إنه الربا وقد حرمه الله في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗ ﴾ يقول المنافقون إن القرآن الكريم لم يحرم الربا إلا أن تكون

الفائدة مركبة ﴿ أَضْعَافًا مُّضَعَفَةً ﴾ ولكن ماذا يقول المنافقون في قول الله تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

رحم الله الدكتور عصمت سيف الدولة ذلك أن قوميته لم تدفعه لمناهضة الإسلام بالقومية أو العلمانية أو للقول بالفصل بين الدين والدنيا.

ورحم الله الدكتور زكي نجيب محمود فانحيازه إلى المذهب الوضعي لم يعمه عن حقيقة الإسلام، وأنه لا يناهض الدين بالعلم أو يدور صراع بين الدين والعقل، ونراه يفند مقولة إن الإنسان إما ذو علم أو ذو دين.

فيقول: إن الإنسان الواحد مجالان يتوحدان بتوحده، كما أن له عينين وشفتين وذارعين ورجلين، فلا يقال إنه بسبب هذه الثنائيات قد انشطر شطرين، وليست أهمية إبراز العقل وجودًا ووظيفة في الكيان البشري مقصورة على أهمية العلم الذي هو من صنائع العقل، بل إن أهميته تتجاوز ذلك إلى جانب خطير في حياة الناس، ألا وهو "الحرية" فالحرية بأهم معنى من معانيها هي السيطرة على ظواهر الطبيعة، التي لو تركت مجهولة لأمكن أن تقف عقبات في سبيل الإنسان، وأما إذا كشف العلم عن قوانينها انقلب رهائن ملك يديه، يسيرها كيفما شاء وأينما شاء.

لا ليس ما نريده لأنفسنا موقفًا شبيهًا بموقف مفستوفوليس إذ هو يقايض فاوست علمًا بإيمان ويندفع فاوست بدافع حبه للعلم، لتمضي به السنون بعد ذلك، ويجيء الأجل المحتوم فيرى كم كانت صفقته مع الشيطان خاسرة، ويأخذ منه الندم مأخذه "ولات ساعة مندم" كلا، ولا الذي نراه في الأمر هو ما رضاه المعري، من أنه إما عقل "أي علم" ولا دين وإما دين ولا عقل، ظنًا منه بأنهما ضدان لا يجتمعان مع أن الحق في ذلك واضح أبلج، وهو أنهما بالفعل مجتمعان في كل إنسان فرد، وشاهد ذلك هو الإنسان نفسه، إذ يراه "أنا" مركز انتباهه في عملية فكرية استدلالية وأنا آخر موجهًا انتباهه إلى الحق سبحانه وتعالى، نابض القلب بإيمانه الديني، فقوة الانتباه واحدة، كشعاع الضوء، يوجهه الممسك بالسراج إلى ما أراد أن ينصب عليه الضوء ليراه، لكن الذي نريده لأنفسنا هما الجانبان معًا، لكل من العقل والقلب مجاله، وفي الإنسان وحياته يلتقي الطرفان، على أن المجالين وإن تجاورزا فاعلية وأداء فقوة أي منهما تضفي قوة على الآخر، وضعف أي منهما يضفي ضعفًا، أنهما كالعينين أو الأذنين، يستقلان ويتعاونان في آن معًا، فلا تناقض بين مجال العلم البشري ومجال الدين، وهما اللذان يفصحان عما انطوى عليه الإنسان من "عقل" وإيمان وأن يكونا مستقلين أحدهما عن الآخر موضوعًا ومنهجًا، إلا أن التقاءهما معًا في الإنسان الواحد الفرد، الذي يحيا بهما معًا، كما يبصر بالعينين

ويسمح بالأذنين ويتنفس بالرئتين، يجعل كل جهاز منهما يشع على جاره من قوته قوة، ومن ضعفه ضعفاً فالعالم في العلوم الكونية أيًا ما كان موضوع تخصصه العلمي، علم الفلك أو فروع من فروع الفيزياء، أو علم الكيمياء في أي فرع من فروعه، وأعجب ما شئت وما استطعت من عجب أن يطول الزمن بهذه اللعبة الخبيثة من شيطان خبيث أراد أن يخاصم بين الإنسان وعقله، فنجح فيما أراد نجاحًا قد اتسع حتى حمل الكثرة الكاثرة ولم ينج من براثنه إلا نفر قليل لمعت عقولهم فأضاءوا الطريق لمن شاء السير على هدى، وكان ذلك النفر القليل في ركونهم إلى "العقل" يبدون لمن لا يعلم، أنهم هم الشياطين الذين غلظت قلوبهم ويبست فلم تعرف طريقها إلى الإيمان، ولقد شهد عصرنا من هؤلاء الأعلام الهداة، من وضع يده على المفتاح السهل البسيط الذي يحل اللغز القديم، لغز الحيرة بين عقل وقلب، كأنما هو حتم على الإنسان أن يلقي بزمامه إلى أحدهما دون الآخر، على نحو ما تصور أبو العلا فيما قدمته إليك عنه وكأنه ليس أمرًا تدركه البديهة الفطرية، أن يكون الإنسان إنسانًا بقلبه وبعقله معًا، كما أراد له خالقه ـ جلت قدرته ـ أن يكون، ولن يكون بين القطبين شد ولا جذب، إذا ما عرف كل منهما أين مجاله وما هي حدود ذلك المجال، فللعقل مجال "الاستدلال" الذي يستند إلى ركيزة مقبولة حتى ولو كان ذلك القبول مؤقتًا ومأخوذًا على سبيل الفرض، ومن تلك الركيزة يلتمس طريقه إلى نتيجة يستدلها، وذلك هو العقل وحدوده في إيجاز شديد، وأما ما عدا ذلك كله ـ وهو كثير وأكثر من كثير ـ فهو متروك للوجدان بمختلف وسائله، على أن ما يوقع كثيرين في خطأ وخلط، بالنسبة إلى الميدان الوجداني الواسع، الذي يشتمل فيما يشتمل عليه على الإيمان الديني بكل أهميته في حياة الناس، أقول إن ما يوقع الناس هنا في خطأ وخلط، وهو أن يروا موضوعات الميدان الوجداني، مطروحة أمام رجال التفكير العلمي فيظنوا بناء على ذلك أنها من "العلوم" ويفوتهم أن يفرقوا بين أن يقبل الإنسان ما تقبله بنبضة مباشرة من قلبه، وقد يكتفي بهذا القبول المباشر، وبين أن يظهر من الناس من يتناول الحقيقة نفسها التي نبض لها قلب من أخذ بها، ليجعلها ركيزة يستدل منها ما أمكنه استدلاله من نتائج، وهي عملية عقلية تجعل من القائم بها رجل علم، بسبب التزامه منهج العلم في عملياته الاستدلالية.

إشكالية العروبة والإسلام في الفكر الحديث

الإسلام علاقة انتماء إلى دين وعقيدة.. والعروبة انتساب إلى أمة بمعنى الشعب والأرض

حاولت الكنيسة في أوروبا أن تحتوي القوميات على أساس وحدة الدين، ولكنها لم تفلح ولم يفلح كذلك النظام الإمبراطوري للحضارات القديمة على الرغم من أن الكنيسة قد باركت قيام إمبراطورية شركان في أواخر القرن السابع الميلادي ووصفتها بالإمبراطورية الرومانية المقدسة.

ولقد كان من سمات النظام الإمبراطوري أن يعيش الشعب القوي على حساب الشعوب المغلوبة والمهزومة، وأن تستولي الدولة المنتصرة على موارد الدولة المغلوبة وكانت تقيم المعسكرات لإرهاب الشعوب المغلوبة بالسلاح والقوة العسكرية لتظل تابعة للإمبراطورية.

وأمام هذا الاستبداد والظلم الفردي والجماعي سقطت الإمبراطوريات وحلت محلها النظم النيابية الحديثة في أوروبا.

والتجربة الأميركية لم تستطع احتواء القوميات، فكان طابع الاستقلال الذاتي لكل ولاية، وكانت الفردية الزائدة مانعًا من الانفصال، وإن لم يمنع الصراع الذي أخذ طابعًا من العنف يتناسب مع المجتمع الأميركي الذي تؤرقه التفرقة العنصرية.

لقد ظن كارل ماركس أن الشيوعية سوف تزيل الصراعات القومية والعرقية، وذلك عن طريق ما يسمى بالأممية التي تجمع الطبقة العاملة في كل دول العالم، وظهرت النظريات والكتب التي تبشر بهذا الدواء الناجح وفجأة في بداية التسعينيات وبعد أكثر من سبعين عامًا من هذه التجربة ظهرت القوميات كالمارد وأعلنت كثير من الجمهوريات رغبتها في الاستقلال، ومازال الصراع المسلح هو الوسيلة التي تستخدم في محاولة لعلاج هذه المعضلة التي توجها انهيار الاتحاد السوفيتي وشيوعيته.

إن الخطأ الجوهري لكل هذه الدعوات والمناهج أنها كانت ترفض الانتماء المتعدد وتنكر تعدد الأمم والشعوب، وهذا أمر لا يمكن إنكاره فهكذا خلق الله الناس، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا

وَقَبَآبِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [1]، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴾ [2].

إن الإسلام عالج هذا الانتماء المتعدد بعد أن كشف عن وجوده حيث جاءت كلمة أمة في القرآن الكريم في أربع وستين آية أكثرها يشير إلى "أن الأمة هي مطلق الجماعة التي تتميز عن غيرها" قال تعالى: ﴿ وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [3] وقال تعالى: ﴿ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ﴾ [4]، وقال تعالى: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ ﴾ [5].

والأمة تتميز بما أصبحت به أمة أو جماعة، فقد يكون هذا العامل هو الكفر والعناد، قال تعالى: ﴿ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۢ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾ [6]، وقد يكون هذا العامل هو الإيمان والتواصي بالحق، قال تعالى: ﴿ وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴾ [7] وقال تعالى: ﴿ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [8].

والأمة في القرآن الكريم قد تكون جماعة لها موطن ينتمون إليه كقول الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ ﴾ [9] وقد يكون عامل الدين والالتزام به هو الذي تجتمع عليه أمة من الناس، قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ [10]، لذا نظم الإسلام حياة الناس على أساس وجود هذه الانتماءات المتعددة، قال تعالى:

---

(١) الحجرات: الآية ١٣.
(٢) هود: الآية ١١٨.
(٣) الأعراف: الآية ١٨١.
(٤) الأعراف: الآية ٣٨.
(٥) هود: الآية ٤٨.
(٦) غافر: الآية ٥.
(٧) الأعراف: الآية ١٥٩.
(٨) آل عمران: الآية ١١٣.
(٩) القصص: الآية ٢٣.
(١٠) آل عمران: الآية ١١٠.

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ [1] والإسلام يساوي بين المنتمين إلى مجتمعه دون أن يمس بتعدد علاقات الانتماء سواء كان الانتماء دينيًا أو إقليميًا، فقد أمر المسلمين بالمودة والعدل مع غيرهم، قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [2] والقسط هو العدل قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [3].

يقول الدكتور عصمت سيف الدولة: لا يقوم العدل إلا على أساس المساواة بين الناس، والإسلام ليس فيه تعارض بين حالات الانتماء فالعروبة انتماء إلى وضع تاريخي يصحب العربي منذ ولادته وحتى وفاته.

والإسلام علاقة انتماء إلى دين خالد في الزمان لأنه خاتم الرسالات والأديان، وخالد في المكان لأنه رسالة إلى جميع البشر ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [4].

فالقومية علاقة انتماء إلى شعب معين ومكان معين، فلا مجال للخلط بين علاقة الانتماء إلى العروبة وعلاقة الانتماء إلى الإسلام لا في الأشخاص ولا في المضمون ولا في حدود الانتماء من الزمان والمكان.

يقول سيف الدولة : حيث يوجد المميز القومي لجماعة من الناس يصح في لغة القرآن الكريم كتاب المسلمين أن تسمى الجماعة أمة ولا ينكر ذلك مسلم، لأنه لا ينكر أن كل جماعة متميزة من الدواب هي أمة فلا تعارض بين الأمة العربية والأمة الإسلامية، لهذا لا يقوم لدى الشعب العربي سبب للتعارض أو التناقض بين العروبة والإسلام.

دور القوميات في الوطن العربي

سعى الاستعمار الأوروبي إلى البحث عن بديل يلتف حوله العرب والمسلمون لإضعاف الولاء للإسلام، فعملوا على إحياء القوميات المحلية كالفرعونية في مصر، والطورونية في تركيا، والعربية في بلاد الشام والحجاز، والبربرية في السودان والجزائر، وهكذا.

---

(١) الأعراف: الآية ١٦٨.
(٢) الممتحنة: الآية ٨.
(٣) يونس: الآية ٤٧.
(٤) سبأ: الآية ٢٨.

وفي سبيل إضعاف الخلافة الإسلامية أوحى إلى محمد علي باشا أن يعمل على إحياء القومية العربية لتنطلق من مصر مقر حكمه، فبدأ في مد سيطرته على السودان والجزيرة العربية وبلاد الشام، ولما وجدت أوروبا أنه تجاوز الخطوط طالبوه بأن يلزم حدوده، فأخذته العزة فحاربوه وهزموه وابنه إبراهيم باشا وأجبروه على معاهدة تصبح فيها مصر دون غيرها من البلاد له ولذريته من بعده.

وصرح الجاسوس البريطاني لورانس في كتابه "أعمدة الحكم السبعة" بأنه كان يحترق من داخله عندما يسأل الشباب في بلاد الشام عن أي شيء فلا يجيبون إلا من نصوص القرآن والسنة حتى لو تعلق السؤال بأمور الاجتماع أو السياسة أو الوطن، وكان يتمنى أن تحل القومية أو الوطنية محل الدين في هذه الشعوب، وكان يقول متى أرى مصر تتغنى بقوميتها ونشيدها الوطني؟ ومتى أرى سوريا تتغنى بقوميتها ونشيدها الوطني؟

وحتى يستطيع لورانس أن يقوم بالدور المسند إليه من المخابرات البريطانية في المنطقة العربية اتفق الألمان مع تركيا في عام ١٩٠٢ على مد خط السكة الحديد في أنفاق عبر جبال طوروس ونقطة تقاطع عند حلب يتجه منها إلى نهر الفرات ويمر بنصيبين والموصل ثم يتبع الخط نهر دجلة حتى البصرة، وتقاسم الألمان مع البنك العثماني - وهو بنك فرنسي - عملية تمويل المشروع الذي يمتد من البسفور إلى الخليج، وأخذت المخابرات الإنجليزية مهمة التنقيب عن الآثار لتكون هذه المهمة مع الخط الحديدي مرتبطتين باحتمال قيام الحرب.

إن جهود لورانس وغيره أثمرت فوجدنا في العالم العربي من يناهض الإسلام بالعروبة، ويقدم العروبة على الإسلام ويرفض الربط بينهما، فالدكتور محمد خلف الله في كتاب "القومية العربية والإسلام" يقول: "يطلب للربط بين الإسلام والقومية العربية التنازل عن العلمانية وهو ما لا يمكن أن تتخلى عنه القومية العربية لأن ممارسة الحياة على أساس من العلمانية يمنح المجتمع حرية وانطلاقًا في تحقيق المصلحة العامة أكثر مما يمنحه الإسلام"[(١)].

وحتى يدرك القارئ حقيقة فكر محمد خلف الله الذي تبوأ منصب مسئول الثقافة في العالم العربي والجامعة العربية، ننقل من كتابه "الأسس القرآنية للتقدم" قوله "الأساس الذي بنى عليه التوحيد كان تحرير العقل البشري من سلطان الآلهة بما فيهم سلطان الله"[(٢)].

---

(١) كتاب "القومية العربية والإسلام"، ص٥٥.

(٢) كتاب "الأسس القرآنية للتقدم"، ص٣٦.

كما يقول: "تبقى بعد ذلك عملية تحرير العقل البشري من السلطة الدينية المتمثلة في نظام النبوة"[1].

وهكذا باسم العقل يهدم محمد خلف الله الألوهية والنبوة، وباسم القومية العربية يهدم الإسلام وتشريعاته.

ولقد كان من القوميين العرب من أدرك خطورة هذا الفكر القومي العربي الإنجليزي والفرنسي، فكتب الدكتور عصمت سيف الدولة في كتابه "العروبة والإسلام": "نشأت في كل قطر عربي طبقة قومية الانتماء إقليمية الولاء، مادية الباطن، إسلامية الظاهر، فردية البواعث، نفعية الغايات، رأسمالية النشاط، اجتماعية الأرباح، يتعلق بها ويتغذى عليها شخوص من الفلاسفة والمفكرين والكتاب والأساتذة والتلاميذ، وهي طبقة نشأت مع الاستعمار لتؤدي بالنيابة عنه ولحسابه نقض الحضارة العربية من بناء شخصية الإنسان العربي"[2].

"إنهم ينافقون الشعب العربي يبغون مرضاته، ربما ليقبلهم في موضع القيادة منه، ولكنهم يجعلون من الإسلام ثمرة من ثمار حضارة ينسبونها إلى أمة عربية لم تولد قط، كأن العروبة هي الأصل وما كان الإسلام إلا فرعًا، ونشهد أننا لم نقرأ ولم نسمع شيئًا أكثر جهالة من هذا الذي اختاره بعض العرب أسلوبًا لمناهضة الإسلام باسم العروبة"[3].

وقد عاب سيف الدولة أيضًا على الذين يناهضون العروبة بالإسلام ويخلقون تناقضًا بينهما، وأشاد بفكر الإمام حسن البنا مؤسس الإخوان المسلمين الذي رفض أي تعارض بين الإسلام والعروبة فكان أكثر دقة في الربط بينهما.

وفي سبيل نفي التناقض بين العروبة والإسلام قال سيف الدولة إن القيم العربية هي ذاتها القيم الإسلامية، فالزنا والخمر والسرقة والرشوة والربا كلها محرمة عند العرب وعند المسلمين.

بين الإسلام والعروبة

إنه مع احترامنا للكاتب وتقديرنا لعلمه ووضعه في عالم الفكر، إلا أن هذه السطور المتعلقة بعدم وجود تناقض بين العروبة والإسلام وأن القيم العربية هي ذاتها القيم الإسلامية...الخ، مثل هذا القول فيه تجاوزات للحقيقة لعدة اعتبارات:

---

(١) مرجع سابق، ص٤١.
(٢) كتاب العروبة والإسلام، ص١٨٢.
(٣) مرجع سابق، ص٤٢٩.

١ ـ أن الإسلام هو من الله، وأما العروبة بما فيها من أخلاقيات بغض النظر عن معاليها أو إسفافها فهي من العقل وشتان بين المصدرين.

٢ ـ أن الإسلام جاء وللناس شريعة وعقود في شتى أمورهم الحياتية، فأقر النكاح ونبذ السفاح وأقر البيع وحرم الربا وأقر العدل ونبذ الجور وأقر الصدق ونفى الكذب وأقر النزاهة وأقصى الرشوة ووضع حدودًا للسرقة مع مراعاة النصاب والحرز، ونبذ كل سطو واعتداء أو هتك واغتصاب وما يتصل بأمر الحرابة كما هو معلوم في الإسلام، وهكذا صلح الإسلام من الموروث القانوني عند العرب، فالإسلام شيء والمفاهيم والقوانين العربية شيء آخر.

٣ ـ وإن الإسلام جاء والناس يعبدون آلهة شتى، فما من بيت من بيوت العرب ولا قبيلة من قبائلها بل حتى الأشخاص كان لهم من الآلهة ما لا يحصى ولا يعد، سواء كانت هذه الآلهة أقمارًا أو أمطارًا أو أحجارًا أو أجرامًا أو ما شابه ذلك من آلهة زور، وصدق الله إذ يقول مخاطبًا لهم كعرب: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾[1].

٤ ـ هل عرفت الدنيا العرب بأخلاقياتها العربية دون الإسلامية؟ وهل عرفتها بمعلقاتها التسع دون القرآنية؟ وهي عرفتها بآلهتها المتعددة أم بالله الواحد القهار؟....الخ.

إذن لاشك أن هناك تناقضًا كاملاً بين الإسلام والعروبة لأن الإسلام كما قرر الكاتب في أكثر من موضع بأنه دين ودولة فمعنى ذلك أن الدولة لا تقوم إلا بقانون يسود المجتمع وتشريع يضبط مساره، فأي تشريع للعروبة وأي قانون للعرب؟ انساحت به في دنيا الناس كما هو الشأن في الفتوحات الإسلامية التي سادت الدنيا بقوانينها وتشريعاتها حتى صار الأمر من الوضوح بمكان؟!

إن ملاحظتنا على الدكتور عصمت سيف الدولة في دفاعه عن الإسلام بالربط بين القيم الإسلامية والقيم العربية، لا تتجاوز هذه الأمور التي تتصل بالمصدر الإلهي للقيم الإسلامية ولا كذلك القيم العربية، وهذا في الحقيقة لا ينكره الدكتور عصمت سيف الدولة. فقد قال بوضوح: "إن الإسلام رسالة للناس كافة أما العروبة فانتماء إلى شعب معين، والإسلام علاقة انتماء إلى دين خالد في الزمان بحكم أنه خاتم الرسالات وخاتم في المكان بحكم أنه رسالة لكل البشر" ص٢٤، ١٨٢، كما قال أيضًا: في الوطن العربي طائفتان طائفة تناهض الإسلام بالعروبة وطائفة

---

(١) الأنبياء: الآية ٩٨.

تناهض العروبة بالإسلام، ويلزم تحديد العلاقة بين الإسلام والعروبة منعًا من الخلط، وإن الإسلام علاقة انتماء إلى دين وعقيدة. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [1] وقد أمرنا الله بالإبقاء على علاقة الانتماء إلى الدين هذه والمحافظة عليها.

أما العروبة فعلاقة انتماء إلى أمة بشطري تكوينها الشعب والأرض، وقد يتعدد الانتماء الديني في الأمة الواحدة دون أن يمس التعدد وحدة الأمة.

لهذا ينظم الإسلام العلاقة بين من ينتمون إلى شعب واحد أو أمة واحدة، مع اختلاف ديانتهم لأن اختلاف الديانة لا يمس انتماءهم إلى مجتمع واحد يتعايشون فيه جميعًا حياة اجتماعية كاملة.

ولم يأذن الله للمسلمين بقتال غير المسلمين ممن ينتمون معهم إلى مجتمع واحد إلا في حالتين الأولى: محاولة غير المسلمين القتال لإكراه المسلمين بالردة عن دينهم، الثانية: قيام غير المسلمين بإخراج المسلمين من ديارهم، قال الله تعالى:

﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ [2].

دستور المدينة وتعدد الانتمـاء

لقد كان العرب قبل الإسلام أشد الناس تعصبًا لقوميتهم وعروبتهم يقاتلون عنها حتى صدوا النبي ﷺ وصحابته عن المسجد الحرام بحمية قال الله تعالى عنها: ﴿ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [3] ولما شرفهم الله بالإسلام أصبحت العربية هي رابطة اللغة ولا يترتب عليها أي تعارض مع الروابط الأخرى للأسرة أو للدين أو للوطن، ولقد وضع النبي ﷺ دستورًا لأهل المدينة من المسلمين واليهود والمشركين وغيرهم راعى فيه تعدد الروابط والقوميات، وهذا الدستور هو وثيقة إعلان الدولة الإسلامية، ويتكون من تسعة وستين بندًا أو مادة، لقد احترم الروابط التي بين المهاجرين وهم المسلمون من أهل ملة فنصت المادة الثانية على أن المهاجرين على ربعتهم "أي على نظامهم الداخلي" يتعاقلون بينهم أي يكفلون بعضهم في الديات

---

(١) الصف: الآية ٩.
(٢) الممتحنة: الآية ٨.
(٣) الفتح: الآية ٢٦.

والنوائب، واحترم الروابط التي بين القبائل من أهل المدينة فجعل لكل قبيلة نظامها الداخلي ورد ذلك في المادة الثالثة إلى العاشرة التي نصت على أن "بنو الحارث على ربعتهم" و"بنو جشم على ربعتهم"، و"بنو النجار على ربعتهم"، وهكذا.

كما نصت المادة الأولى أن المؤمنين أمة من دون الناس. وتضمن القسم الثاني من الوثيقة تنظيم قبائل اليهود ورد ذلك من المادة ٢٩ إلى المادة ٥٢، وفي هذه المواد نص على أن اليهود أمة مع المؤمنين وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين.

كما أن هذا الدستور قد شمل المشركين فنصت المادة ٢٣ "أنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا ولا يحول دونه على مؤمن.

وعالجت هذه الوثيقة تنازع القوانين والتشريعات بين هذه الطوائف فنصت المادة٢٨ على أنه "ما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد" أي عند الاختلاف فالتشريع الإسلامي هو القانون الواجب التطبيق لأنه قانون الدولة، وبهذا شرع الإسلام قاعدة إقليمية القانون وهذا قد توصلت إليه أوروبا في العصر الحديث فقط أي بعد أربعة عشر قرنًا من هذه الوثيقة.

لقد تصدى الإمام حسن البنا للمحاولات التي ظهرت في الوطن العربي لخلق صراع بين الإسلام والعروبة، وله كلمات تظل.. رغم تباعد الزمان ذات صدى طيب، فتنفذ إلى أعماق الواقع وتعالج علله منذ سبعة وخمسين عامًا، فقد كتب عن العروبة والإسلام ما نصه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [1].

نزل القرآن الكريم عربيًا، واختير نبي الإسلام العظيم عربيًا، وفي هذا الدين الإسلامي معنى من معاني العروبة الخالصة: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ [2] ففعل في نفوس الأمة العربية فعل السحر، وصقل جواهر الخلق الحر من نفسها، فجعل استقلالها ثورة على الخرافة، وجهادها حربًا على الباطل، وشجاعتها نصرة في جانب الحق، وكرمها وسخاءها بذلاً في سبيل الله العلي الكبير.

وامتد بذلك رُواق العروبة الصريحة من قلب الجزيرة حتى بلغ قرني الدنيا، واستظلت به أمم وشعوب لم تكن تدري ما الكتاب ولا الإيمان، واتسع بذلك معنى العروبة، وانتقل الدم العربي الصافي إلى عروق كريمة فارت به وغلا فيها حتى حوّل

---

(١) الزخرف: الآية ٤٤.

(٢) الشعراء: ١٩٢: ١٩٥.

كل شيء يتصل بحياتها عربيًا خالصًا، فلم تصبح الأمة العربية هذه الآلاف التي تضمها رمال الصحراء وتحجبها حدود الجزيرة، ولكنها صارت ثمانين مليونًا من فلذات كبد الإنسانية تحتل قلب النيا من الخليج إلى المحيط الأطلسي بعد مراكش، ويظاهرها ويمدها ثلاثمائة مليون من المسلمين، يفكرون بعقلها ويشعرون بوجدانها ويؤمنون بالوحدة القوية الحقيقية التي تربطهم بها، ويعتقدون أن قوتها قوة له وضعفها ضعف لهم، وأن المصلحة العامة ـ إلى جانب العقيدة الروحية ـ قد جعلت من الجميع أمة واحدة، مشتركة الآلام والآمال.

وكان من عجيب صنع الله لهذا الإسلام أن ضمنه معنيين كريمين عظيمين:

أولهما: أن جعله رسالة المبادئ الإنسانية السامية التي لا يقوم أمر السماوات والأرضين ومن فيها إلا عليها: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [1].

فهذا الإسلام يدعو أول ما يدعو إلى الربانية وحسن الصلة بالله، ثم إلى الإنسانية والتسامي بحقيقة الإنسان، ثم إلى العالمية وتأكيد معنى الأخوة والرحمة والصلة بين الناس، وكل ما جاء به من فرائض ونوافل وعبادات وأعمال وأقوال وأحكام، إنما يقصد به تثبيت هذه المعاني العليا في نفوس الناس حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

وثانيهما: أن هذا الدين العالمي قد أُسس على معان من التسامح والسعة والصفح والغفران تجعله أمنًا وسلامًا أو قسطًا وعدلا مع الذين لا يؤمنون به ولا يدينون له، ففرض على أتباعه أن يؤمنوا بكل نبي سبق، وبكل كتاب نزل، وهو يثني على الأنبياء والكتب والحواريين والرسل والأمم التي سبقته والمؤمنين ممن تقدموه، ويدعو المؤمنين به إلى أن ينهجوا نهجهم ويأخذوا أخذهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ [2].

والمسلم يرى في كتابه هذه المعاني واضحة لا لبس فيها ولا غموض، فهو يقرأ عن موسى عليه السلام:

---

(١) المؤمنون: الآية ٧١.

(٢) الصف: الآية ١٤.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ (١)

وعن توراة موسى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ ﴾ (٢) وعن شعب موسى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (٣).

كما يقرأ عن المسيح عليه السلام: ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٤٥ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (٤)، وعن إنجيل عيسى: ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ (٥)، وفي شعب عيسى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ (٦)، يقرأ مثل هذا الثناء على الأنبياء السابقين جميعًا والكتب السماوية كلها: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ (٧).

---

(١) الأحزاب: الآية ٦٩.
(٢) المائدة: الآية ٤٤.
(٣) الجاثية: الآية ١٦.
(٤) آل عمران: ٤٥، ٤٦.
(٥) المائدة: الآية ٤٦.
(٦) المائدة: الآية ٨٢.
(٧) البقرة: الآية ٢٨٥.

ولا يقف هذا الدين الإسلامي الحنيف عند هذا الحد، بل يفتح باب التعاون العملي والاتصال العقلي بين المسلمين وغيرهم من المخالفين لهم فيقول: ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾ [1] وانظر إلى مدى التسمية هنا حتى في العبارات، لترى كم كان هذا الدين ساميًا متساميًا راغبًا أشد الرغبة في تمهيد الطريق للتعاون والامتزاج والاتحاد.

وبهذين المعنيين استطاع الإسلام أن يقدم للدنيا حضارة تقوم على الفضائل النفسانية والعزائم العملية، وأن يقيم في التاريخ إمبراطورية لم يمنعها اختلاف الأجناس والعقائد أن تكون مثال العدالة والتسامح.

ومن هنا كان على العرب جميعًا مسلمهم وغير مسلمهم أن يعتزوا بالإسلام، ويفخروا به ويشيدوا بذكره، ويتعصبوا له، وأن يعتبروا ثقافته وتشريعه وحضارته هي اللون الأساسي الذي يجب أن تصطبغ به حياتهم العملية، فأما المسلمون فلأنه دينهم وعقيدتهم، وأما غير المسلمين فلأنه ميراثهم وقوميتهم ومفخرتهم الخالدة ومعجزتهم الباقية، وصدق الله العظيم: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [2] ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [3].

نكتب هذا بمناسبة ما يتردد كثيرًا من وجوب إبعاد المعاني الإسلامية عن كل ما يتصل بالأوضاع العامة.

رواد النهضة انخدعوا ببريق الحضارة الغربية

وارتضوا أن يكونوا حراسًا لأوروبا

إشكالية الحوار القومي ـ الإسلامي: خطوات نحو التغريب

خطّط الاستعمار الإنجليزي والفرنسي للاستيلاء على بلاد العرب وتقسيمها تركة فيما بينهما، واستطاع الإنجليز توظيف العرب للصراع مع الأتراك وحرضوا

---

(١) المائدة: ٥.
(٢) الزخرف: الآية ٤٤.
(٣) الأنبياء: الآية ١٠.

الشريف حسين على إعلان الثورة ضد الخلافة الإسلامية، وأعطوه وعدًا كاذبًا بأن يقيم خلافة عربية إسلامية هاشمية على أنقاض الخلافة الإسلامية العثمانية.

وغاب عن الشريف حسين والزعماء العرب الموالين له أن لكل من بريطانيا وفرنسا أطماعًا في البلاد العربية، وقد تنافست الدولتان على احتلال هذه البلاد وكانتا تعلنان أنهما الوريثتان للخلافة العثمانية حتى أطلقتا عليها اسم الرجل المريض، وتنازعتا فيما بينهما على توزيع تركة هذا المريض.

استطاعت بريطانيا أيضًا أن توهم الزعامات العربية بأن العرب أمام خيارين:

أ ـ إما الأخذ بالنموذج الأوروبي وتقليد أوروبا في كل شيء دون تفرقة بين الحسن والقبيح.

ب ـ أو البقاء على التخلف العربي تحت مسمى الأصالة.

وقد انخدع بعض العرب بالوعود الإنجليزية وقاموا بما سمي في التاريخ بالثورة العربية الكبرى، وهي في الحقيقة خيبة عربية مازال العرب يجنون ثمارها، فقد أدت هذه الثورة إلى هزيمة الخلافة العثمانية وتوزيع تركتها بين بريطانيا وفرنسا طبقًا للاتفاق السري بينهما والذي عرف باسم "اتفاق سايكس ـ بيكو".

كما انخدع رواد النهضة العربية بالبريق الذي أحاط بالمدينة الأوروبية وارتضوا بأن يكونوا الحراس للنمط الأوروبي في البلاد العربية، وكأنهم ينفذون مقولة كرومر أن تحكم البلاد العربية بأيد عربية وعقول أوروبية.

لقد انخدع هؤلاء الرواد بالحيلة البريطانية التي قادت العقلية العربية للصراع مع الأتراك ولتبني المفاهيم الأوروبية في القومية الوطنية، وهو المفهوم الذي يخلق صراعًا كاذبًا خاطئًا بين الدين والقومية أو بين الدين والعقل والعلم.

وقد فطن لذلك عبدالحميد بن باديس في المغرب العربي والشيخ محمد رشيد رضا في المشرق العربي والذي خلفه الشيخ حسن البنا، فلم يقبل هؤلاء الصراع بين الإسلام والعروبة أو الصراع بين الدين والعلم أو بين الدين والعقل.

وأيقن العرب ـ لكن بعد فوات الأوان ـ أن الساسة البريطانيين نفذوا وعد بلفور لليهود بإقامة وطن لهم في فلسطين، وخدعوا العرب في وعد بلفور للشريف حسين باستقلال بلاد العرب عن تركيا، وتكوين خلافة عربية يسودها القانون والشرع الإسلامي.

الصراع العربي وأزمة المثقفين

لقد ابتليت الشعوب العربية بخلاف مصطنع بين رواد النهضة في العالم العربي.

أ ـ فمن الرواد من رفع راية القومية العربية بمفهوم يصادم الإسلام ويخدم الاستعمار.

ب ـ ومن الرواد من رفع راية الوطنية بمفهوم يخلق الصراع بين الأوطان العربية.

ج ـ ومنهم من نادى بوحدة عربية تتخذ من العروبة عقيدة ومن الدين تراثًا تحت مسمى البعث العربي.

لقد كان الخلاف بين هذه التيارات خلافًا مصطنعًا، علم بذلك الرواد أم جهلوه، فالوطن هو محور هؤلاء جميعًا، ومن ثم ما كان ينبغي أن يوجد مثل هذا الخلاف، والسبب في الخلاف لم يكن يتصل بالوطن والوطنية، بل كان يتركز حول دور الإسلام والعلاقة بينه وبين القومية، سواء كانت القومية الضيقة المشكلة للإقليم الواحد أو القومية العربية التي تتسع لكل بلاد العرب.

فالإسلام ـ رضي هؤلاء أم كرهوا ـ أنشأ علاقة عضوية بينه وبين الأمة العربية، فقد كان الرسول عربيًا وكان الدستور الإسلامي عربيًا، واختار الله العرب ليكونوا أمة الإسلام، وفيهم قال الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾.

لقد كان لطفي السيد وطه حسين يعتبران أن الإسلام ليس إلا رافدًا للتراث المصري ولا يُمثل شيئًا أكثر من ذلك.

أما ساطع الحصري في العراق فكان يعتبر الإسلام رافدًا لغويًا للقومية العربية وتراثًا تاريخيًا فقط، لأن العروبة أو القومية العربية لديه تقوم على العامل اللغوي وليس الديني كما كان يصرح في كتبه ومقالاته.

وقد حاول ميشيل عفلق الخروج من هذا المأزق ونادى بأمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة، الإسلام فيها ليس إلا رافدًا تاريخيًا وعاطفيًا أو روحيًا، وكان عفلق يريد أن يستقطب المسلمين بالمحافظة على مشاعرهم ويقنع النصارى بأن عروبة الإسلام أو أسلمة العروبة لا تعني التحول عن القيم الأوروبية التي يظنون خطأ أنها ذات جذور نصرانية، قد تظاهر بالانحياز للإسلام، فوصف الإسلام وصلته بالعروبة بأوصاف ليست إلا زخرفًا من القول، فهو يكرر في المناسبات الدينية الإسلامية أن الإسلام تاريخنا ولغتنا وبطولتنا وهو ليس حادثًا تاريخيًا انقضى بل هو رسالة خالدة.!

وحتى يتضح للقراء حقيقة من كانوا يدعون إلى هذه النعرات ننقل بعض أقوالهم، يقول لطفي السيد: "إن مصر لا يمكنها أن تتقدم إذا كانت تجبن عن الأخذ بمنفعتها وتتواكل في ذلك على أوهام وخيالات يسميها بعضهم الاتحاد العربي، ويسميها الآخرون الجامعة الإسلامية".

وليس غريبًا أن يُسمى لطفي السيد بعد ذلك بأستاذ الجيل، حيث نادى بنبذ الإسلام ونبذ العرب والعروبة، فعندما احتلت إيطاليا ليبيا أرسلت مصر بعثة طبية لإسعاف الجرحى وقدم المصريون ستة آلاف جنيه للمنكوبين، فكتب لطفي السيد عدة مقالات في الصحيفة التي يصدرها ويملكها وهي "الجريدة" وكانت المقالات بعنوان "سياسة المنافع، لا سياسة العواطف" جاء فيها أن من مصلحة مصر نبذ ليبيا والليبيين وعدم الخلاف والعداء للإيطاليين، وسمى المتبرعين "بالبلهاء"، وقال أن إعانة ليبيا في اعتداء إيطاليا عليها قد ظهرت بشكل ديني، وهذا في زعمه خطأ وضار بمصر.

يقول طه حسين الذي أصبح عميدًا للأدب العربي "لا تصدقوا ما يقوله بعض المصريين من أنهم يعملون للعروبة، فالفرعونية متأصلة وستبقى كذلك، ويجب أن تبقى، والمصري مصري قبل كل شيء ولن يتنازل عن مصريته مهما كانت الظروف".

إن عميد الأدب العربي لا يجهل أنه لا يوجد تعارض بين الانتماء إلى الأسرة وإلى القبيلة وإلى الإقليم المصري أو السوري ثم الانتماء العربي والإسلامي، ولكنه يخلق هذا الوهم من التعارض ليزعم أنه مطلوب أن يتنازل المصري عن مصريته.

يعالج المفكر القومي الدكتور عصمت سيف الدولة هذا التناقض المزعوم في كتابه العروبة والإسلام بقوله: "الفكر العربي الحديث في مساره العام فكر منفتح على الحضارات الأخرى، ولكنه للأسف الشديد لا يأخذ من هذه الحضارات إلا المظاهر والكماليات".

لقد عرفت أوروبا الوحدة السياسية والوحدة الاقتصادية وتكاملت دولها وشعوبها، ولكن لم يستطع الفكر العربي الحديث أن يوجد للعرب وحدة سياسية بل ولا وحدة اقتصادية على غرار السوق الأوروبية المشتركة، مع توفر مقومات هذه الوحدة وأسبابها لدى العرب.

ولم يستطع الفكر العربي أن يوفر للشعوب العربية مناخًا ملائمًا من الديمقراطية، على الرغم من أن الشورى وجدت في العرب خلال القرون الوسطى، بينما كانت أوروبا تمارس أنواعًا من الإرهاب والمظالم، لا تعرف لها البشرية مثيلاً،

ولئن كانت الكويت استثناء في ديمقراطيتها، فإن أزمة الفكر العربي الحديث لا تتمثل في هذه التناقضات فقط بل في المأزق الذي وقع فيه حين أخذ عن أوروبا الصراع بين الدين والعلم، وبين الدين والدنيا وبين العروبة والإسلام.

لقد خرج الدكتور عصمت سيف الدولة عن علمانية القوميين العرب الذين ينتمي إليهم لأسباب أفصح عنها في مقالاته وكتابه "عن العروبة والإسلام" فقال:

كانت خلاصة ما تقدم من تخريب وتغريب أن نشأت في كل قطر عربي طبقة قومية الانتماء إقليمية الولاء، مادية الباطن، إسلامية الظاهر، فردية البواعث، نفعية الغايات، رأسمالية النشاط، اجتماعية الأرباح، يتعلق بها ويتغذى عليها شخوص من الفلاسفة والمفكرين والكتاب والأساتذة والتلاميذ، ثم يقول وهي طبقة نشأت مع الاستعمار لتؤدي بالنيابة عنه ولحسابه نقض الحضارة العربية من بناء شخصية الإنسان العربي.

كما يصحح المفكر القومي للقوميين والعلمانيين تذرعهم بتقديم العلمانية على الإسلام للمحافظة على وحدة الانتماء للوطن بين المسلمين وغيرهم فيقول: "لم يحدث أبدًا أن وجد فرد دون مجتمع، ولا يمكن أن يوجد مجتمع بشري لغير نظام، ولا يمكن أن يوجد مجتمع بشري بغير حدود وقواعد، وكل نظام يحمل اسم المصدر الفكري لهذه القواعد فيقال نظام حر أو ديمقراطي أو اشتراكي أو ماركسي، فتكون هذه المذاهب أو العقائد مصدر هذا النظام، فلا تُباح مخالفتها أو الاتفاق على مخالفتها وتسمى في علم القانون قواعد النظام العام، وكل من يؤمن بفكرة أو فلسفة أو عقيدة من هذه العقائد هو كافر بما يخالفها، وما يصدق بالنسبة لكل النظم يصدق بالنسبة للنظام الإسلامي، فيكفي لقيامه مشروعًا أن يقبله الناس أو أغلبيتهم، وتبقى للأقلية حرية النقد وإقناع الناس برأيها وبخطا ممارسات الأغلبية إلى أن تحصل على أغلبية فيصبح الحكم لها.

الصراع بين العروبة والإسلام

د. محمد جابر الأنصاري في كتابه "تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي" يتخذ موقفًا صارمًا من افتعال البعض صراعًا بين العروبة والإسلام فيقول: "نجد العروبة في بعض أقطار العرب مضادة للإسلام، لوجود تيارات مذهبية وعرقية وصراعات أضعفت المسلمين، بينما ظل الإسلام هو مدخل مصر إلى العروبة، فكانت عروبة مصر أقل عرضة للتيارات الشعوبية التي تبعدها عن الإسلام، وظل المجتمع المصري متماسكًا موحدًا رغم كثر أجناسه، وذلك في ظل الإسلامية العربية والشعب بكل فئاته قد آمن بأن دور مصر في العالم هو دور إسلامي، فحين قصف الفرنسيون دمشق سنة ١٩٢٥ وسحق الإيطاليون ثورة برقة سنة ١٩٣٠ كانت

ردود الفعل المصرية واحتجاجات المصريين دفاعًا عن الإسلام وليس باسم القومية العربية، ولا يوجد تناقض بين القومية العربية والإسلام إلا عند خصوم القومية الدينية، ففي سنة ١٩٣٠ نجد السياسي المصري المحنك محمد علي علوبة مؤسس رابطة الاتحاد العربي وأحد زعماء الأحرار الدستوريين يقول في خطاب له بدمشق: "أنا لا أدري ما الحافز الذي حدا ذلك النفر الضئيل في مصر أن يصرخ محذرًا من أن تكون مصر واسطة عقد الأمم العربية، فلو كان هناك جنس فرعوني لحمًا ودمًا وعظمًا، فلم يكن الإنسان إنسانًا إلا باللغة والتفكير لا باللحم والدم والعظم، إن الإنسان خلق من تلك النفخة القدسية تطيروا ما مصر إلا عربية ولا تقوم إلا أنها عربية".

وكتب الأستاذ عبدالرحمن عزام ناقدًا فكر طه حسين: "لقد قبل المصريون دين العرب وعادات العرب ولسان العرب وحضارة العرب وأصبحوا عربًا في طليعة العرب، والواقع الآن أن مصر من جسم الأمة العربية في مكان القلب".

ويؤكد الدكتور عصمت سيف الدولة: إننا لسنا في حاجة إلى فلسفة حزب البعث وميشيل عفلق بشأن العروبة والإسلام، ذلك أن العربي على السجية يغرس في ذريته قيمة المساواة بين الناس مهما تكن فروق اللون والجنس والمال، ويدرك العربي أن المساواة لا تعني أن يكون كل شخص مثل الآخر في كل شيء بل يغرس العربي في بنيه أن المساواة لا تعني إلغاء التفاوت في الموهبة والقدرة بل تعني أن الناس تحكمهم قواعد عامة يخضع لها الجميع.

إن العربي مسلمًا كان أو غير مسلم يحكم على الأمور بمقياس واحد، فالكذب حرام والظلم حرام والسخرية حرام وأكل أموال الناس حرام، إن هذه القيم يعتز بها المسلم وغير المسلم، وهي قيم ومبادئ جاء بها القرآن الكريم، إن الفكر العربي الحديث منفتح على أفكار الشعوب الأخرى ولم ينغلق على نفسه، ولهذا تأثر بالفكر القومي وبالفكر الشيوعي وبالأفكار الوطنية.

الفكر القومي والتناقض المصطنع

قبل تورط القوميين العرب في مناهضة الإسلام بالعروبة والقومية، أعلن الإمام حسن البنا في المؤتمر الخامس أنه قد تتعدد أفكار الناس وتتنوع وتتوزع بين بين الوحدة القومية والعربية والإسلامية، وقد يضيفون إلى ذلك الوحدة الشرقية، ويجيب عن ذلك بأنه لابأس أن يعمل كل إنسان لوطنه وبلده ويقدمه على سواه، وأنه لا يوجد تعارض بين هذه الوحدات كلها، لأن كلا منها يشد أزر الأخرى، ويحقق الغاية منها، ثم يقول: لهذا يؤيد الإخوان المسلمون الوحدة العربية ويعملون للوحدة الإسلامية.

ومع هذا الوضوح وهذا النداء للوطنيين في كل مكان تورط لطفي السيد وطه حسين في اصطناع التعارض بين القومية المصرية والعربية وبينهما، وقد كتب لطفي السيد عام ١٩١٣: "كان من السلف من يقول بأن أرض الإسلام وطن لكل المسلمين، تلك قاعدة استعمارية تتمشى مع العنصر القوي الذي يفتح البلاد باسم الدين، أما الآن والحال كذلك، فقد أصبحت هذه القاعدة لا حق لها من البقاء لأنها لا تتمشى مع الحال الراهنة للأمم الإسلامية، فلم يبق إلا أن يحل محل هذه القاعدة المذهب الوحيد المتفق مع أطماع كل أمة شرقية لها وطن محدود، وذلك المذهب هو مذهب الوطنية..".

أما طه حسين فقد رأينا موقفه من هذا الأمر في كتاب "مستقبل الثقافة".

لقد اصطنع هؤلاء تعارضًا كاذبًا بين الإسلام والقوميات، لأنهم تورطوا في التحالف مع الاستعمار بفرض العلمانية على العالم العربي بقيادة هذه الزعامات التي يطمئن إليها الاستعمار؛ لتكون الحارس الأمين على رسالته ومصالحه.

يقول د.محمد جابر الأنصاري: لو عقدنا مقارنة بين ساطع الحصري وميشيل عفلق ـ وكلاهما من دعاة الفكرة العربية البارزين ـ لوجدنا دائرة الخلاف تتسع من حيث تحليلهما لجوهر القومية العربية، ولرأينا طه حسين ومعارضه العروبي العلماني ساطع الحصري يقفان معًا في ناحية،بينما يقف ميشيل عفلق في ناحية أخرى، ولتبيّنّا أن مسألة الفصل بين القومية ـ مصرية كانت أم عربية ـ وبين الإسلام ليست بالسهولة الواضحة المستقرة التي أوحى بها "التفاؤل" الليبرالي العلماني الأول، فساطع الحصري ـ المنتمي للجيل الليبرالي المخضرم ـ عربي مسلم عاش مطلع شبابه في تركيا، وبسبب غلبة الأفكار العلمانية وسيادة تأثير حركة تركيا الفتاة في تلك الفترة، رسخ في تكوينه النظري المثالي ـ عن بعد ـ أن أمته العربية الجديدة الصاعدة ممكن أن تعيد وحدتها على أساس علماني كسائر قوميات أوروبا التي انسلخت عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة، أو كتركيا الجديدة المنسلخة عن دولتها العلمانية القديمة على أقرب تقدير.

أما ميشيل عفلق الذي ناضل والده مع المجاهدين العرب المسلمين في دمشق الشام ضد الاستعمار الفرنسي، والذي التزم بالعمل الحزبي بين الجماهير المسلحة، والذي جاء ـ وهذا مهم ـ في عهد شحب فيه تألق الغرب العلماني، فقد اكتشف منذ أن خرج من تحت تأثير الفكر الماركسي عام ١٩٣٦ وما بعده، أن هناك علاقة خاصة وفريدة واستثنائية بين الإسلام والعروبة، وأنه لم يرتبط قومية بدين كما ارتبطت القومية العربية بالإسلام، الذي مثل عبقرية الأمة وانسجم مع طبيعتها، إن ما كتبه ميشيل عفلق عام ١٩٤٣ بمناسبة الاحتفال بـ "ذكرى الرسول العربي"

واضح الدلالة على هذا الموقف، غير أن حزب البعث عبر مسيرة التجربة الطويلة ـ خارج الحكم وفي الحكم ـ قد مر بمراحل فكرية ومناخات نفسية بعضها قريب من الماركسية أو "الاشتراكية العلمية" وبعضها قريب من العلمانية، وبعضها الآخر أقرب إلى منطلقه الأصلي في الدمج بين العروبة والإسلام، فأي حالة وأي مرحلة كانت القرب والأصدق تعبيرًا عن المنطلق الفكري الأساسي؟

يظن الدكتور الأنصاري أن ميشيل ليس علمانيًا، ففي إجابته يقول: لربما أسعفتنا في الإجابة على هذا السؤال الدقيق وقفة فكرية استرجاعية وقفها ميشيل عفلق في نهاية المطاف عام ١٩٧٦، من منطلق الموقف الأول مطلع الأربعينيات، فإذا هو يجد نفسه أكثر تصميمًا على رفض الفكرة العمانية القاطعة، وأكثر اقترابًا من روح الإسلام العربي أو العروبة المسلمة، وأكثر ابتعادًا عن المفهوم الأوروبي للقومية والتفسير الماركسي للدين، وأكثر إلحاحًا على دعوة المسيحيين العرب للاقتراب الحميم من الإسلام في سبيل تأكيد صدق عروبتهم ذاتها، قال من منطلق الموقف الفكري الأول بعد أن اندمجت به تجربة ثلث قرن من الصيرورة العربية، سلبًا وإيجابًا، تقدمًا وتراجعًا: "قراءة للتراث تعطي للثورات في العالمين ولثورات هذا العصر، بما فيها الثورة العربية، نسبية معينة، لأنها جميعًا ثورات بشرية بحدود طاقة الإنسان مهما بلغت هذه الطاقة، وتجربة الأمة العربية من خلال الإسلام فيها شيء مطلق، في حين أن كل شيء آخر نسبي قد يعيش عشر سنوات أو مائة سنة، ولكن ليس فيه صفة الخلود"، إذن "فالرسالة العربية الخالدة" ـ من هذا المنظور ـ ما هي إلا ذلك المطلق الإسلامي الذي يرفع العروبة فوق ما هو نسبي من قوميات وفلسفات أخرى، ويمنحها ـ وحدها ـ صفة التفرد وامتداد اللانهائي، وتمسكًا بهذا المطلق الإسلامي المثالي المميز للعروبة، ثم رفض المفاهيم النسبية التجريبية المستخرجة من تجارب القوميات الغربية، وعلى الأخص مفهوم العلمانية.

إسلاميات ميشيل عفلق

إن هذا الذي انتهى إليه الدكتور محمد جابر الأنصاري يجعلنا نقف عند إسلام عفلق وإسلامياته.

لقد توفى ميشيل عفلق في باريس يوم الجمعة ١٩٨٩/٦/٢٤ وفوجئ العالم كله ببيان يصدر عن القيادة القومية لحزب البعث العراقي أنه سبق لميشيل عفلق أن اعتنق الدين الإسلامي، لكنه لم يرغب هو ولا رفاقه في القيادة فى إعلان ذلك حرصًا منه ومنهم على ألا يُعطى هذا الخيار أي تأويل سياسي، وبناء على هذا البيان تم دفنه طبقًا للشريعة الإسلامية.

وقد استهوى هذا بعض المفكرين الإسلاميين لإعادة قراءة فكر ميشيل عفلق لمعرفة موقع الإسلام من هذا الفكر، وقد انتهت هذه الدراسة إلى أنه قد تجاوز الفكر القومي الذي يعتبر الإسلام مجرد أحد مقومات القومية العربية، واستدل على أن ميشيل قد تجاوز هذه المرحلة من كلمات في خطاب له في ذكرى تأسيس حزب البعث في إبريل ١٩٨١، حيث تحدث عن الإسلام باعتباره المقوم الرئيس للقومية العربية وجوهر الأسس التي تقوم عليها النهضة العربية الحديثة.

إن عقيدة البعث كما رسمها ميشيل عفلق هي عقيدة عروبية قبل كل شيء، شعارها هو "أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة" فما موقف حزب البعث من الإسلام كشريعة وقانون؟ وما علاقة الدين بالدولة في عقيدة البعث؟ وما موقف البعث من العلمانية؟ وما مدى اعتبار ميشيل عفلق مسلمًا؟

يبدأ بالجواب على أمر لا يختلف عليه المسلم وهو أن دخول الفرد في الإسلام يكون بإعلانه شهادة لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

فلو أعلن ذلك وهو يخفي الكفر بالإسلام، فهو مسلم في الظاهر وحسابه في الآخرة على الله تعالى، حيث قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾

أما إذا أخفى إسلامه ولم يعلنه وتحدث بما يوافق الإسلام فهو صديق للإسلام والمسلمين ولا يمكن اعتباره مسلمًا، وما فعلته قيادة البعث في العراق من إعلان إسلامه بعد وفاته هو من الخيانة للإسلام والمسلمين، ولهذا تمادى صدام حسين ليخون الأمة ويحطم التضامن العربي ويحتل الكويت في ١٩٩٠/٨/٢، ويرفض كل مشاريع التسوية المؤدية إلى انسحابه من الكويت.

بعد هذه الكارثة خضعت أكثر الدول العربية لكل مشاريع الهيمنة الصهيونية فكان التسابق على إعادة العلاقات مع إسرائيل دون أي تغير من مظاهر العدوان والغطرسة، فخان ياسر عرفات الوفد الذي أوفده للتفاوض على الصلح، وأبرم من وراء ظهورهم اتفاق أوسلو الذي جرد الفلسطينيين من الدولة المستقلة وجعل لياسر وجماعته سلطة محدودة لهدف محدد نشرته جريدة "الأنباء" الكويتية بتاريخ ١٩٩٦/٣/٢٠ بالعدد ٧١٢٨ نقلاً عن جريدة نيويورك تايمز هذا الهدف هو: "أن يقوم عرفات بدور الشرطي الحارس لأمن إسرائيل".

وكما أعلن موشى ديان وزير الحرب الإسرائيلي السابق أن الإسلام في المفهوم الإسرائيلي يكون بتغيير المفاهيم العربية لتتوافق مع ثقافة إسرائيل، والقيم الإسرائيلية، لهذا كان التطبيع الثقافي في أكثر الدول العربية.

إنه لا خلاف بين أكثر القوميين في رفضهم الإسلام كتشريع وحكم وأخلاق، وإن اختلفوا فيما بينهم في بعض الوسائل للوصول إلى أهدافهم أو في المصالح التي يسعون إليها بتأثير الجهات التي ينتمون إليها، فالمسلم ساطع الحصري لا يختلف عن قسطنطين زريق الذي صرح في كتابه "الوعي القومي" الصادر ١٩٣٩ بأن القومية العربية لا ترتبط بالإسلام في التشريع أو الحكم أو القيم الأخلاقية.

وميشيل عفلق لا يخالف هؤلاء في هذه القضية وهي محور الصراع بين الاستعمار والعالم الإسلامي، وبين القوميين والمسلمين.

والدكتور محمد أحمد خلف الله الذي يتمسح بالقرآن الكريم نفاقًا في كتابيه "مفاهيم قرآنية" و "الأسس القرآنية للتقدم" حيث يقول في الأخير: "تبقى بعد ذلك عملية تحرير العقل البشري من السلطة الدينية المتمثلة في نظام النبوة"[1]، نراه يصرح بموقف القوميين من الإسلام فيقول: "يطلب للربط بين الإسلام والقومية العربية التنازل عن العلمانية وهو ما لا يمكن أن تتخلى عنه القومية العربية، لأن ممارسة الحياة على أساس من العلمانية يمنح المجتمع حرية وانطلاقًا في تحقيق المصلحة العامة على أساس من الحضارة العلمية أكثر مما يمنحه الإسلام".

ولا يهمنا أن تختلف القومية العربية في مفهوم عفلق عنها عند لطفي السيد وساطع الحصري فهؤلاء جميعًا يقبلون الإسلام كشعائر لمن آمن به ويرفضونه كقانون وشريعة ودولة، ويقدمون عليه العلمانية ويفرضونها حتى على المسلمين.

فالعبرة ليست بنوع القومية أو العلمانية، وإنما في قبول هؤلاء بالنصوص الدستورية في القرآن والسنة النبوية فيما يتعلق بالتشريع والقانون.

فالعلمانية تحرم ما أحل الله وتبيح ما حرمه الله، واختيارها منهجًا للحياة يتعارض مع الإسلام، وهذا هو المأزق في الفكر القومي العربي، وهو ما عبر عنه المستشرق الأميركي كانتول سميث بقوله: "إن العلمانية سلوك واقعي للمسلمين المعاصرين، وهي تتعارض مع شمولية الإسلام والالتزام به دينًا ودنيا". يقول ميشيل عفلق: منذ ثلاثة وثلاثين عامًا في عام ١٩٤٣ وأنا أدرك أن المسيحيين العرب عندما تستيقظ فيهم قوميتهم يعرفون أن الإسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها ويحرصوا عليها حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم، وتطور الأحداث خلال ثلاثين عامًا أوصل إلى هذه النتائج عند البعض وهي بدايات لاشك أنها ستكون لها تتمة، فإذن لم يكن ممكنًا لنظرة كنظرتنا أن تأخذ بخرافة العلمانية وسطحيتها، وإن

(١) كتاب الأسس القرآنية للتقدم، ص٤١.

كنا لا نجادل في الحدود والتطبيقات القانونية والدستورية لما يفهم من العلمانية، ولكن العلمانية كإهمال وبتر لأهم شيء في قوميتنا وفي تاريخنا وتكويننا النفسير والعقلي، فأمر غير مقبول وغير واقعي".

إن الذي يميز ميشيل عفلق عن القوميين من المسلمين هو أنه لظروفه الخاصة حاول أن يوفق بين العروبة والإسلام، فأعلن الحقيقة التي يتوارى منها القوميون المسلمون أمثال ساطع الحصري ولطفي السيد، وهي أن الإسلام رسالة أخلاقية وفكرية واجتماعية في تاريخ البشرية، لهذا اعتبره عفلق رافدًا للقومية العربية.

والفرق بينه وبين المسلمين القوميين هو أنه لم يصرح بما صرحوا هم به من أنهم يرفضون الإسلام كتشريع ونظام، ويقبلون العلمانية لأنها كما كتب محمد خلف الله تمنح المجتمع حرية في تحقيق ما يرغبون فيه من الشهوات والمحرمات!

فالرسالة الخالدة لدى عفلق والبعث ليست هي رسالة الإسلام، بل هي العروبة التي يجعلون الإسلام رافدًا من روافدها.

لقد تطلع عفلق إلى تسلم الحكم بعد رحيل الاستعمار لأنه في النهاية يفضلهم عن سائر الوطنيين الإسلاميين، فلم يعلنوا موقفهم الرافض للإسلام، ولكن مناهج حزبه تنطوي على عقيدتهم التي قال عنها إنها العروبية الشاملة ذات الرسالة الخالدة.

لقد رفض ميشيل عفلق القومية الموالية للاستعمار الأوروبي، وعلل ذلك بقوله "إن الاستعمار الذي كان يحتل بلادنا كان لا يخفي ارتياحه بهذه العلمانية، بل كان يشجعها، فالعلاقة العضوية بين الاستعمار والعلمانية تجعلنا نرفض هذه العلمانية لخطرتها على القومية العربية ذاتها".

وعفلق يعني بهذه العلمانية الاعتقادية التي تناهض الإيمان والدين في مصده، ولا يعني علمانية القوانين، فهو يقول عن هذا النوع من العلمانية "أما العلمانية بمعنى الدستور والقوانين التي لا تميز مذهبًا على آخر فهذه نسلم بها ونمشي مع هذا العصر، ولا نُجادل في ذلك طالما أنها مسألة نصوص دستورية وقانونية". ويؤكد على ذلك بقوله: "إن الدولة التي يعمل لها البعث العربي هي نقيض الإلحاد والفساد، ومادام الدين منبعًا فياضًا للروح، فالعلمانية التي نطلبها للدولة هي التي تحرر الدين من السياسة، وتسمح له بأن ينطلق في مجاله الحر في حياة الأفراد والمجتمع في سبيل البعث.

ندوة (الأقليات المسلمة بين الفقه والقانون) بحثت أوضاعهم

من يعيد الاعتبار لتتار القرم المسلمين؟

خلال الفترة من ١٥ إلى ١٧ أكتوبر ١٩٩٨ عقدت بمدينة كييف عاصمة أوكرانيا ندوة عن الأقليات المسلمة بين الفقه والقانون، وذلك بدعوة من اتحاد المنظمات الاجتماعية في أوكرانيا وبمشاركة من لجنة مسلمي آسيا بالكويت.

بحثت الندوة مشكلة تتار القرم وهم المسلمون الذين جردهم ستالين من ديارهم وأموالهم ونفاهم إلى مجاهل سيبيريا في الأربعينيات من هذا القرن[1].

ولقد كان اقتراح ممثل الحكومة الأوكرانية أن تعرض مشكلتهم كمسلمين على منظمة المؤتمر الإسلامي، ولهذا فإن "الأنباء" لها فضل السبق في نشر ملف هذه المشكلة كاملاً لتساهم الدول الإسلامية والجمعيات الخيرية في حلها، بل ولتتولى الأمم المتحدة القيام بدورها في تحمل المسئولية عن المجتمع الدولي الذي سكت عن رد العدوان عنهم نحو خمسين عامًا ذاقوا خلالها العذاب والضياع ومات نحو نصفهم.

لقد كان من أبرز المشاركين في هذا المؤتمر الكسندر بجمولف نائب رئيس مجلة دراسات الشرق الأوسط، وفيشلاف شفلد نائب رئيس مجل الأمن القومي الأوكراني، وفلاديمير شيراي مسئول قسم السياسة الداخلية بوزارة الداخلية الأوكرانية، وسيجيه تيلوشن مستشار الرئيس الأوكراني للشئون الداخلية، د.معاذ أبو عبيدة رئيس اتحاد المنظمات الاجتماعية الرائد، والشيخ فيصل مولوي المستشار بمحكمة بيروت وأمين الجماعة الإسلامية بلبنان، والدكتور عادل الفلاح وكيل وزارة الأوقاف كرئيس للجنة مسلمي آسيا.

ولقد اضطهد النظام الشيوعي الأوكرانيين عامة والمسلمين منهم خاصة وجعل لتتار القرم منهم شرف الهجرة كرهًا في سبيل الله تعالى، لقد زعم ستالين أن الأوكرانيين لم يتعاونوا مع الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا بزعامة هتلر، فأهمل بلادهم بينما استولى على مواردها وخص المسلمين التتر في شبه جزيرة القرم باضطهاد خاص تمثل في إغارة الجيش عليهم بغتة وشحنهم في سيارات النقل إلى مجاهل سيبريا حيث يموت الضعفاء.

---

(١) نشرت في الأنباء الصادر في الكويت يوم ١٩٩٨/١٠/٢٩، العدد ٨٠٦٦.

وقد تعمد الشيوعيون توزيعهم عشوائيًا؛ ليعيش الأب في مكان والأم في مكان والأولاد في أماكن أخرى، وتعمدوا مصادرة أموالهم وبيوتهم.

واليوم بعد انهيار الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفيتي كانت أوكرانيا أول جمهورية تمسكت باستقلالها عن روسيا وبعد استقلالها، أظهرت الذين قتلوا من الضباط والجنود في القتال ضد الألمان بجانب الروس وجعلت لهؤلاء متحفًا كبيرًا به صورهم ومخلفات الحرب كشاهد على افتراء ستالين عليهم وعلى المسلمين منهم، وكان أن تحملت أوكرانيا مسئولية عودة من بقي من المبعدين أو المهجرين فعاد ٢٦٠ ألف شخص وبقي مثلهم أو نحو ربع مليون شخص يريدون العودة إلى ديارهم، ولكن ليس لهم مأوى فظلوا ينتظرون من يمد لهم يد العون والمساعدة.

وأصدرت جمهورية أوكرانيا عدة قرارات لحل مشكلتهم منها القرار ٣٣١ في ١٩٩٦/٣/١٨ لحل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية بجمهورية القرم ذات الحكم الذاتي في نطاق السيادة الأوكرانية، والقرار رقم ٦٣٦ في ١٩٩٦/٨/١١ لحل المشاكل السياسية والقانونية والاقتصادية لرعاية جمهورية القرم ذات الحكم الذاتي، وأصدر مجلس وزراء أوكرانيا نحو عشرين قرارًا لحل مشكلات تتار شبه جزيرة القرم.

نريد حلاً لمسلمي القرم

إن هذه القرارات لم تحل إلا جزءًا صغيرًا من مشكلات هؤلاء الذين تمنوا أن يكونوا مثل أهل الكهف، وجوهر المشكلة أن بيوتهم قد وزعها الشيوعيون على غيرهم، وأما أموالهم فقد استولت عليها حكومة الاتحاد السوفيتي الذي انهار ولا يوجد من يتحمل هذه المسئولية نيابة عنه كمجرم حرب.

وجمهورية أوكرانيا تعلن أنها لم ترث الاتحاد السوفيتي حتى تصبح المسئولة عن مشكلاته مع أهل القرم، ولهذا ترى حكومة أوكرانيا أن يتحمل معها هذه المسئولية الدول التي تعيش فيها تتار القرم، وهي روسيا وأوزبكستان وبلوخستان، بل إن بعض هذه الدول هي العقبة أمام عودة تتار القرم إلى أوكرانيا، فأوزبكستان تفرض رسومًا باهظة على من يترك جنسيتها من هؤلاء ولا يوجد من يدفع لهم الرسوم حتى يتركوا أوزبكستان وينتقلوا إلى أوكرانيا تمهيدًا لحصولهم على جنسيتها.

لقد خصصت أوكرانيا ٦٠ مليون دولار لحل مشاكل مسلمي التتر، ولكن لم يدرج منها في الميزانية سوى ١٣ مليون دولار، ولم يصرف منها سوى مليونين وهم في انتظار المساعدة من خارج أوكرانيا، وكان في الخطة أن يُبني ألف مسكن، لكن لم يبن إلا مائتان فقط.

إن توفير البيوت وغيرها من مستلزمات الحياة يحتاج إلى ثلاثة مليارات دولار، والذي تقرر هو ٣٠٠ مليون فقط، ولكنها للعجز أصبحت ٦٠ مليون دولار ثم خفضت إلى ١٣ مليون دولار صرف منها مليونان، وقد طلبت حكومة أوكرانيا المساعدة من الخارج، ومن ألف بيت كانت في الخطة الحالية لم يتم بناء سوى مائتين، لهذا تتعلل أوكرانيا بأنها غير مسئولة عن هذه المشكلة، فهي من مخلفات الاتحاد السوفيتي ويجب أن تتحمل دوله المساهمة في حل هذه المشكلات، وعلى الأخص الدول التي يعيش فيها تتار القرم مثل روسيا وأوزبكستان وبلوخستان.

وأعلن مفتي القرم أنه كان في بلادهم ألف وسبعمائة مسجد استولت عليها الحكومة الشيوعية وحولتهاإلى سكن للعائلات، ولم تترك سوى ثمانية مساجد أثرية، واليوم يُقال: تسلموا المساجد من العائلات التي تسكنها.

الوثائق الرسمية

إن تتار القرم الموزعين في أكثر من بلد لهم مشاكل أكثر سوء في مجال تسكين تتار القرم المهاجرين والعائدين إلى بلادهم، والأقل سوءًا هم تتار جمهورية القرم ذات الحكم الذاتي ضمن الدولة الأوكرانية.

يصل عدد المهجرين نسبة إلى سكان جمهورية القرم إلى ١١.٦٪. ووفقًا لمعلومات الإدارة العامة بوزارة الداخلية لجمهورية أوكرانيا بجمهورية القرم عاد٢٥١٢٥٨ شخصًا من تتار القرم المهجرين إلى الجمهورية حتى ١٩٩٨/٧/١، والعدد القادم للمهجرين حسب معلومات أقسام العلاقات القومية للجان التنفيذية للمدن والسلطات المحلية للمناطق بجمهورية القرم ذات الحكم الذاتي يبلغ حوالي ٢٤٠ ألف شخص، والسبب في الفرق هو أن جميع العائدين لم يتمكنوا إلى اليوم أن يسجلوا أنفسهم وأماكن سكنهم.

المساعدات الإسلامية

إن مسألة تقديم المساعدات المالية من قبل البنك الإسلامي ومنظمة المؤتمر الإسلامي والدول العربية والإسلامية مازالت قيد البحث، وتوجد تدابير أخرى في مجال التوقيع على الاتفاقيات الثنائية مع الجمهوريات المستقلة في مجال التعاون للعودة الاختيارية للمهجرين إلى موطنهم أوكرانيا، وخاصة من أوزبكستان والتي تضع رسومًا غير عادية للتنازل عن الجنسية تمهيدًا لمنح هؤلاء المهجرين الجنسية الأوكرانية باعتبارهم جنسيتهم الأصلية.

وهذه التدابير لم يتم اتخاذ خطوات عملية بشأنها، وتتعلل الحكومة الأوكرانية بعجز ميزانيتها عن اتخاذ أي تدابير وتنتظر المساعدة من الدول

الإسلامية، ولكن أعضاء البرلمان الأوكراني من تتار القوم أفصحوا أن السبب الحقيقي هو خوف الحكومة الأوكرانية من زيادة عدد المسلمين في أوكرانيا، حيث أنهم حاليًا لا يصلون إلى المليون نسمة، وكانوا أضعاف ذلك قبل الهجمة الشيوعية، بل إن أحد المؤرخين الأوكرانيين وقف في المؤتمر معلقًا وقال: (إن الإسلام قد دخل بلادنا عام ٦٤٩ بمعرفة "عبدالرحمن الفاتح" الذي وصل حتى البلغار، وعقد أهل البلاد الصلح بقبول الإسلام، كما قال إن الإسلام قد وصل إلى القرم بعد ذلك في عام ٧٣٠م، وأكد ذلك بأن البشتك كانت هي العاصمة، وقال إن المسيحية دخلت البلاد عام ٩٨٢م على يد "القديس فلاديمير"، وكان المسلمون هم الأغلبية وكان المفتي الإسلامي في كييف عاصمة أوكرانيا عام ٨٢٠م هو "عبدالله الشمسي" وكانت هناك مقبرة إسلامية).

نداء مفتي القرم

وجه مفتي تتار القرم نداء إلى المسلمين بمساعدتهم لأنهم لا يستطيعون الذهاب إلى أي دولة إسلامية لطلب المساعدة، وعلى المسئولين في البلاد الإسلامية زيارة هذه البلاد والتعرف على احتياجاتهم وسدها مباشرة، وليس عن طريق الحكومات أو الأمم المتحدة حيث تضيع أكثر التبرعات في المصروفات الإدارية، كما أوضح المفتي أن ٧٠٪ من السكان قد نسوا الدين واللغة العربية، ونحن نبدأ معهم من الصفر ولكن نحن في حاجة إلى عدد كاف من الدعاة أو مدرسي التربية الإسلامية الملتزمين بالدين حتى لا يفسدوا في الأرض ويسيئوا إلى الإسلام.

وقال المفتي: نحن نضطر لدخول المدارس العلمانية التي لا تعلمنا الدين ولا الأخلاق، ونحن في حاجة ملحة إلى ٥٠٠ من أئمة المساجد حيث لا يوجد سوى ١٥ مدرسًا تركيًا.

وأضاف أن غير المسلمين تساعدهم دولهم من البلغار والأرمن، وأما المسلمون فلا تساعدهم الدول الإسلامية، بسبب غير معلوم، بينما لم تتصل الدول الأخرى من القوميات التابعة لها ديانة والطريق إليهم مزدان بالورود بخلافنا نحن المسلمين.

دور المجتمع الدولي

يجب على المجتمع الدولي إعادة الاعتبار للشعب التتاري المهجر من القرم في سنة ١٩٤٤م، حيث تم انتهاك حقوقه السياسية والمدنية والاقتصادية والاجتماعية، ونتيجة ذلك وبسبب عدم وجود القرارات المناسبة لا يمكن حل المشاكل في العلاقات بين القوميات المختلفة، وعلاة على ذلك يتأثر بمثل هذه الحقائق وعي الشعب، وأما بالنسبة لحق التمليك فيجب الإشارة إلى أنه لا يستطيع عدد ٧٠ألفا من التتار الساكنين في قريم في الوقت الحاضر أن يعيدوا جنسيتهم الأوكرانية،

فكلهم رجعوا بعد العام ١٩٩١م، ولا يستطيعون من أن يشتركوا في تملك البيوت وتقسيم الأراضي، وتشهد بذلك الشكاوى الكثيرة المرسلة إلى السلطات على مستوى الحكومة والسلطات المحلية.

مشكلات أخرى

المدرسون التتر ذوو الخبرة عاطلون عن العمل وهذا يؤدي إلى توتر في مجال العلاقات الاجتماعية، ومن المعلوم أنه أحيانًا ترفض السلطات تقديم المساعدة دون أن تبين أسباب الرفض، ويوجه موظفو الهيئات الناس إلى أقسام العلاقات القومية التابعة للبلديات أو إدارات المناطق أو لجنة الدولة.

وعند وضع الميزانيات للمدن والمناطق لا تضمن البلديات فيها الأبواب الخاصة بحل مشاكل التتار في مجال الثقافة وبناء الطرق وتنظيم مرافق المدن وتشغيل السكان، وتثير هذه الحقائق السخط الشديد من قِبل السكان التتار، وتجعلهم يظنون أنه لا يمكن حل هذه المشاكل أبدًا، ونتيجة لذلك يزيد مستوى الإجرام وينحط الشباب التتاري، وأحيانًا يقوم الناس بمحاولات الانتحار.

وتسير الأمور في مجال التعليم القومي بصورة غير مرضية، لأن عدد المدارس التتارية قليل جدًا، ويتم فيها تعليم الأطفال باللغة التتارية، رغم أن إمكانية تلقي العلوم بلغة المولد عبارة عن حق كل مواطن حسب دستور أوكرانيا.

تقرير حكومي عن المجال الاجتماعي

شكلت حكومة أوكرانيا لجنة برئاسة السيد الياسوف لترتيب عودة تتار القرم، واتخذت هذه اللجنة الحكومية بالاشتراك مع أقسام اللجان التنفيذية للمدن والسلطات الحكومية للمناطق الخاصة بالعلاقات القومية، وكذلك مع الهيئات الإقليمية للإدارة الذاتية القومية لتتار القرم، تدابير موجهة إلى الحماية الاجتماعية للأسر قليلة الدخل والمحتاجة والأسر التي تضررت من الكوارث الطبيعية والحرائق والمعوقين والمتقاعدين، وشكل المبلغ الإجمالي للمساعدات المادية المقدمة إلى الأسر قليلة الدخل والمحتاجة سنة ١٩٩٦ وكذلك إلى الأسر التي فقدت عائلها، ،الأسر المتضررة من الكوارث الطبيعية والحرائق حوالي ٢٣٠ ألف غريفن، كما قدمت المساعدات إلى أكثر من ٢٠٠٠ تتار القرم في شكل الأدوية للعلاج، ففي سنة ١٩٩٦ تم دفع أجرة عدد من العمليات الجراحية لمرضى القلب بمدينة كييف وأمراض العيون بمدينة أوديسا وفي روسيا، ومعروف أن المعوقين والمتقاعدين هم أكثر الناس المحتاجين إلى الحماية أثناء المرض، فإقرار الدفع الجزئي مقابل الخدمات الصحية والأدوية والمستحضرات يضع هؤلاء الناس في وضع لا مخرج منه، والإنقاذ الوحيد

بالنسبة لهم هو التوجه إلى اللجنة الحكومية للحصول على المساعدة آخذين بعين الاعتبار الوضع الواقعي، وعلى أساس التوجهات المتعددة لتتار القرم تم صرف مبلغ أكثر من ١٣٣ ألف غريفن سنة ١٩٩٦ بمادة "الصحة".

ففي سنة ١٩٩٦ تم أيضًا دفع تعويضات للسفريات ونقل العفش بمبلغ عام قدره ٨٧٨ ألف غريفن، وتم كذلك دفع المصروفات لقاء السكن المؤقت في المساكن الداخلية والشقق الخاصة حسب اتفاقيات الإيجار وقدرها ٥٧٤ ألف غريفن وتم دفع قمية نقل مياه الشرب ونقل التلاميذ وقدرها ٤٩٨ ألف غريفن، ولكن لم يصرفوا إلا ٢٨٪ من الخطة المعتدة وذلك بسبب التمويل المحدود للغاية للتدابير الاجتماعية الثقافية المرتبطة بعودة تتار القرم وترتيب أوضاعهم سنة ١٩٩٦.

فطبقًا للخطة الحكومية للمصروفات بالقرار قم ٤٦٦ الصادر في ٥ يوليو١٩٩٦ والمصادق عليها من قبل مجلس وزراء جمهورية القرم ذات الحكم الذاتي، فإن معظم المسائل الحادة والملحة لم يكن من الممكن صرفها بسبب نقص التمويل.

ونتيجة لذلك بقيت البرامج المحلية في مجال التعليم القومي والثقافة والصحة غير منفذة لهؤلاء البؤساء، حيث لم يتم الدفع الكامل للمساعدات المادية لنحو ١.٦ مليون مواطن وبينهم الأسر المحتاجة والذين يبنون بيوتًا خاصة لهم، وتكونت ديون جبارة في مجال المدفوعات الأساسية الإلزامية، وخاصة بقي دين قدره ٨٠٠ ألف غريفن في مجال دفع قيمة السفريات ونقل العفش وحول ذلك إلى سنة ١٩٩٧ ومقابل السكن في المساكن الداخلية بالإيجار وقدره ٢٥٠ ألف غريفن، ونقل مياه الشرب ونقل التلاميذ وقدره ٦٠ ألف غريفن.

إن عدم تلبية احتياجات تتار القرم في منح المساكن الداخلية لهم مرتبط بالأسعار العالية للغاية حيث تسترشد المنظمات التي تقدم المساكن الداخلية لدى ذلك بالنظام القائم والمقرر من قبل مجلس وزراء جمهورية القرم ذات الحكم الذاتي "قرار رقم ١٩٤ بتاريخ ١٩٩٥/٤/١٣، وقرار ٢٧٨ بتاريخ ١٩٩٦/٨/١٤ حول أجرة السكن في المساكن الداخلية" فمثلاً حددت إدارة السكن لشركة البناء "قرم ستروي" أجرة سري واحد من ٦٥ إلى ٨٨ غريفن في الشهر "أي ٢.٨ غريفن يوميًا"، وتضيف أيضًا إلى جدول المصروفات قيمة الخدمات التي لا تقدم إلى الساكنين في مساكنها الداخلية، ونتيجة لذلك تضطر اللجنة الحكومية أن تدفع مقابل شقة "١٨ مترًا مربعًا" تسكنها عائلة، أكثر من ٢٠٠ غريفن شهريًا، والحال أن قيمة أجرة المنزل العادي والخدمات المعيشية مقابل السكن في المنزل المريح من ثلاث شقق "٤٥ مترًا مربعًا" تشكل ٨٥ غريفن فقط، فتوجهت اللجنة الحكومية إلى إدارة التفتيش المالي بوزارة المالية بطلب التأكد من درجة تناسب الأجرة مع السكن

في المساكن الداخلية، لكن إلى الآن لم تتسم أي جواب رسمي بهذا الخصوص، وآخذة بعين الاعتبار غلاء أجرة السرير الواحد في المساكن الداخلية.

إن مجالاً مهمًا آخر لنشاط اللجنة الحكومية هو إعداد الكوادر، ففي الوقت الحالي يبلغ عدد الطلبة من قومية تتار القرم الذين يدرسون في المعاهد والجامعات العليا للجمهورية ذات الحكم الذاتي بكافة أنواعها إلى أكثر من ٢٠٠٠ شخص ومنهم ٣٦٢ شخصًا مع دفع أجرة التعليم، ،إلى جانب ذلك يتعلم في المعاهد التخصصية بالقرم ومنها مدرسة المعلمين بسيمفروبول والمعهد الطبي والمعهد القانوني هناك أكثر من ٣٠٠ من أبناء وبنات تتار القرم ومنهم ٣٢ شخصًا مع دفع أجرة التعليم، ففي كلية القرم لجامعة كييف الاقتصادية الحكومية التي هي من أحسن المعاهد العليا بالقرم يتعلم ٦٧ طالبًا حسب اتفاقية سنة ١٩٩٢، كما أن اللجنة الحكومية تقدم مساعدة عملية في تحويل الطلبة من معاهد الجمهوريات المستقلة إلى معاهد القرم وتحويل التعليم بدفع الأجرة إلى التعليم الحكومي المجاني للطلبة التتار.

وضع اقتصادي صعب

إن الوضع الاقتصادي الصعب في أوكرانيا والقرم والبطالة الجماهيرية بين تتار القرم والظروف المعيشية المنزلية غير المرضية لسكن أسر تتار القرم لا تسمح للكثير منها أن تدفع أجرة التعليم في حينها في المعاهد العاملة على أساس دفع أجرة التعليم، وبهذه المناسبة ازداد عدد طالبات تتار القرم إلى اللجنة الحكومية ومجلس الوزراء والمجلس الأعلى لجمهورية القرم ذات الحكم الذاتي في سنوات ١٩٩٥م، ١٩٩٦م بتقديم المساعدة المادية في دفع أجرة التعليم، وانطلاقًا من الظروف الناشئة وكذلك بهدف إعداد الكوادر الوطنية تم اتخاذ القرار حول تخصيص مبلغ قدره ١٠٠ ألف غريفن لدفع أجرة التعلم، وهذا ما يشكل ٨٥٪ من البرنامج المخطط لسنة ١٩٩٦، أما المصروفات الفعلية في هذه المادة فشكلت ٧٩ ألف غريفن، حيث خصصت ١٠آلاف منها لتسديد ديون الاتفاقية مع كلية القرم لجامعة كييف الاقتصادية الحكومية، وبهدف اتخاذ تدابير أكثر موضوعية في كل حالة ملموسة لتحديد ضرورة وجدوى دفع أجرة التعليم تم إقرار لجنة خاصة تضم في قوامها أيضًا ممثلي المنظمات الاجتماعية لتتار القرم.

لقد نظرت هذه اللجنة خلال مدة عملها في ٩٥ طلبًا وتم تلبية ٧٤ طلب منها، ورفض ٢١ طلبا آخر، والسبب الأساسي للرفض كان النقص في القاعدة المادية الفنية للمؤسسة التعليمية وعدم وجود ترخيص معني لنشاطها والوضع المادي المقبول

لمقدمي الطلب، وعدم جدوى التعليم في هذا التخصص وعدم مستقبله وغيرها من الأسباب.

ففي سنة ١٩٩٦ تم افتتاح المدارس للتعليم بلغة تتار القرم في قرية فيلنيو بمنطقة باخجارساري ومدينة ستاربي قرم حيث صرف لتجهيزها مبلغ قدره ١٥ ألف غريفن، ومع ذلك يتقلص عدد المجموعات والصفوف المتعلمة بلغة تتار القرم حيث تلاقي صعوبات جادة في توفير الكتب المدرسية والأدبيات الأخرى والوسائل التعليمية المرئية وغيرها في هذه اللغة، كما أن مسألة توفير المدرسين لم تحل في كل الأماكن، ومن المقرر افتتاح مدرستين جديدتين للتعلم بلغة تتار القرم بمدينة ببلوغورسك وقصبة انروفسك بمنطقة جانكوي.

وتعتبر اللجنة الحكومية أن اللجنة المعمارية الحكومية لا تقوم بالمراقبة الفنية الدقيقة على ير أعمال الترميم، وإضافة إلى ذلك فإن مشاريع التصاميم يصادق عليها دون المناقشة الواسعة في الرأي العام المعماري، ودون تقديرات الخبراء اللازمة للقرارات المتخذة في هذا المجال، فخبراء اللجنة الحكومية عازمون على أن يشتركوا في سنة ١٩٩٧ بشكل ملموس في تقييم مشاريع تصاميم أعمال الترميم ووضع خطة سنة ١٩٧٧، وتنظيم الرقابة الشديدة الفعّالة على تمويل هذه الأعمال واستخدامها للأغراض المخصصة لها، ومعروف أن إعادة ترميم الآثار التاريخية والمعمارية والحضارية للشعب التتري بالقرم والشعوب الأخرى هناك إنما هي أحد أهم اتجاهات عمل كل أجهزة السلطة، واللجنة سوف تتوصل إلى إنشاء وتشكيل مجلس تنسيقي دائم يشترك في عمله الخبراء المعنيون من اللجنة المعمارية الحكومية واللجنة الحكومية للآثار؛ لأجل اتخاذ القرارات المبدئية في مجال أعمال الترميم.

ففي سنة ١٩٦٦ استمر الدعم المالي للجرائد والمجلات الصادرة بلغة تتار القرم وإصدار نماذج الأدب الروائي في هذه اللغة، لقد صُرف لهذا الغرض ٩٨ ألف غريفن للأول و٤٦ ألف غريفن للثاني، وهذا شكّل ٣٨,٧٪ ، ١٨,٣٪ من المصروفات السنوية المبرمجة حسب المواد المشار إليها.

لقد تكون وضع غير مرض غلى أقصى حد في مجال "الثقافة" حيث تم تخصيص ٩٪ فقط من الأموال المبرمجة للسنة لإحياء وتثبيت وتطوير الثقافة القومية للشعب التتري بالقرم، وهذا أدى إلى عدم تنفيذ عدد كبير من التدابير المخططة المرتبطة بثافة تتار القرم.

فمثلاً عن طريق وزارة المالية بجمهورية القرم ذات الحكم الذاتي تم التمكن من الدفع الجزئي لرواتب عاملي الثقافة في المدن والمناطق، أما لإجراء حفلات عيد رأس السنة وشراء الهدايا للأطفال من الأسر قليلة الدخل فخصص ٣ آلاف غريفن

فقط، كما أن الاستراحة الصيفية لأطفال تتار القرم لم تحقق بسبب النقص في الأموال المخصصة لذلك.

إن تحليل وضع الأمور في مجال تمويل التدابير الاجتماعية الثقافية المرتبطة بعودة تتار القرم خلال السنتين الأخيرتين "١٩٩٥ ـ ١٩٩٦" يشير إلى أن مبلغ الوسائل التي ما تم الحصول عليها تُشكّل ١٠,٦ ملايين غريفن، بما فيها ٢,٣ مليون سنة١٩٩٥، و ٨,٣ ملايين سنة١٩٩٦.

وطبيعي أنه في ظل التمويل بهذا الشكل من المستحيل تنظيم العمل بشكل مبرمج وبنظام دقيق ومستمر، وبهذه المناسبة ازداد سنة ١٩٩٦ عدد تتار القرم المتوجهين إلى اللجنة الحكومة بشكل ملحوظ، وكذلك عدد الشكاوى والطلبات المرتبطة بعدم حلول هذه المسألة أو تلك في حينها، وخاصة ازداد عدد الشكاوى المرتبطة برفض أو تأخير تقديم المساعدات المادية أو قيمة الإيجار، وكذلك تمديد مدة بناء السكن وشبكة المواصلات.

ونتيجة لذلك قابل خبراء اللجنة الحكومية سنة ١٩٩٦ حوالي ٣٦٧٠ زائرًا، ونظروا في ٢٠٠٠ طلب كتابي، كما أن ٤٠٠ شخص توجهوا إلى اللجنة بطلب منحهم الشقة أو شرائها أو منحهم السكن الداخلي.

الخلاصة

منذ صدور القرار رقم ٦٣١ لسنة ١٩٦٩ في ظل الاتحاد السوفيتي بشأن إعادة الاعتبار إلى تتار القرم الذين شردهم ستالين، ولم ينجز شيء فعّال لهؤلاء المستضعفين فالقرار كان يعطيهم كغيرهم من الأقليات حق التمثيل السياسي في انتخابات حرة يُشارك فيها المسلمون، ثم بعد انهيار الاتحاد السوفيتي أصدر الرئيس الأوكراني قرارًا بتشكيل تتار القرم وترتيب أوضاعهم، وتضمّن القرار تكليف الوزارات المختصة باتخاذ اللازم لترتيب أوضاعهم وحل الأمور المعلقة بشأنهم، ولكن تعذر ذلك للأسباب الوارد ذكرها.

وإن كانت الحكومة الأوكرانية تعتذر لقلة الأموال وتطلب صراحة من الدول الإسلامية مساعدتهم، فإن الواجب الديني والإنساني قد غاب في الماضي ونأمل ألا يستمر في الحاضر، سواء من الحكومات أو الشعوب.

فصل الدين عن الدنيا بين الإسلام والمسيحية

فشل الاستعماران البريطاني والفرنسي في فصم عرى الوحدة الوطنية عبر تقسيم العرب إلى مسلمين ومسيحيين، وتم تحذير المسلمين من العودة إلى تطبيق أحكام الشريعة التي ألغى الاستعمار سيادتها على الوطن، بذريعة أن العودة إلى الشريعة تؤدي إلى تمزيق الوحدة الوطنية لأن النصارى سيطالبون بتطبيق شريعتهم وبالسماح لهم بحزب ديني!

وحفاظًا على الوحدة الوطنية التي يحرص الاستعمار عليها كما يزعم، فلابد من فصل الدين عن الدنيا والأخذ بالنظام العلماني "اللاديني".

ولقد سقط بعض العرب المسلمين في هذه الفتنة ونصبوا أنفسهم نوابًا عن المستعمر وخلفاء له، فعارضوا تطبيق أحكام الشريعة والسماح بأي حزب يتضمن برنامجه تطبيق الشريعة، وزعموا أن ذلك هو صمام الأمن ولا يتحقق الأمن القومي إلا به، وهذا ما ردده المحامي شوقي خالد في صحيفة "روزاليوسف" يوم ١٩٩٥/٩/١١ وما يردده غيره في الكويت ولا مجال فيها للقول بتهديد الوحدة الوطنية.

لقد أوضح د. عصمت سيف الدولة في كتابه عن العروبة والإسلام أن فصل الدين عن الدولة أو الدنيا ليس له وجود إلا في المجتمع المسيحي، حيث يوجد الصراع بين الكنيسة والعلم وبين الكنيسة والدولة، ومن ثَمّ كان نزع فتيل الصراع بقاعدة من داخل الدين المسيحي وهي قول السيد المسيح "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله".

وانتهى المفكر القومي إلى أنه لا يمكن أن يكون لهذه القاعدة وجود إلا في المجتمع المسيحي، أمّا في البلاد العربية والإسلامية فالقول بالعلمانية أو فصل الدين عن الدولة ليس إلاّ كلامًا فارغًا[1].

وأما تباكي بعض من يحملون أسماء إسلامية على النصارى العرب فهذه ليست إلا دموع التماسيح، لأنه لا توجد في الديانة المسيحية شرائع دنيوية حتى يُقال إن تطبيق شرائع الإسلام عليهم فيه مخالفة لشيء من دينهم.

إن الديانة المسيحية تستند إلى عقيدة لم يختلف عليها النصارى وهي أن المسيحي ليس له قوانين ومملكة في هذا العالم.

---

(١) كتاب "العروبة والإسلام"، ص٢٣٥.

وقد كتب القس إبراهيم عبدالسيد أن المسيحي ليس له إلا سلطان روحي لأن المسيح ليس له مملكة في هذا العالم الفاني، ولكن سلطانه روحي على النفوس التي عليها أن تسعى لحياة أبدية ليس لها حدود مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر، وما زاد على ذلك فهو من الشر إذ هو متاع نفعي زائل يخرج عن اختصاصات الكنيسة.

ويروى أيضًا، عبارة حاسمة للسيد المسيح حدّد بها العلاقة بين الكنيسة ونظم الحكم المختلفة على مر العصور، هذه العبارة جاءت هي قول السيد المسيح "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله" هذه العبارة جاءت بنصها ثلاث مرات في الكتاب المقدس في إنجيل متى ١٧: ٢٢، وإنجيل مرقص ١٢: ١٧ "، نقلت ما نشرته صحف القاهرة للكاتب المسيحي الأستاذ سامي داوود، حيث قال ردًا على وزير العدل المستشار أحمد سميح طلعت: إن تصريح وزير العدل بأن إقامة الحدود الشرعية ستكون مقصورة على المسلمين، أما المسيحيون فسيطبق عليهم القانون الوضعي،يفصم الوحدة القانونية التي ظلت تحفظ وحدة المسلمين والمسيحيين على مر العصور، وبأي ضمير يحكم القاضي على المسلم إذا سرق بقطع يده، بينما يحكم على المسيحي إذا سرق بالحبس بضعة أشهر، ثم قال: "إن ما يتضمنه القانون المدني من مواد تستند إلى الشريعة الإسلامية ومنها ما يتعلق بالمواريث، وهو أهم وأخطر على علاقات الأسر يطبق على الجميع، فهل شكا أحد من ذلك؟

وفي العدد التاسع من ذات المجلة الصادرة في غرة ربيع الأول سنة ١٣٩٧هـ فبراير١٩٧٧م" نشرت تحقيقًا تضمّن رأي العلماء المسيحيين في مصر عن تطبيق الشريعة الإسلامية فنقلت قول الكاردينال "اصطفانوس" بطريرك الأقباط الكاثوليك: "إن تطبيق حدود الشريعة الإسلامية ضروري للشخص وللمجتمع حتى تستقيم الأمور، وينصلح حال الناس، وليس في تطبيقها أبدًا ما يمس حقوق المسيحيين أو يضايقهم، والذي يحترم الشريعة الإسلامية يحترم جميع الأديان"، ونقلت المجلة عن الأنبا "غريغوريوس" ممثل الأقباط الأرثوذكس قوله: "إن تطبيق الشريعة الإسلامية في مصر أمر لا شك فيه ولا اعتراض عليه. ولا مانع من الدعوة إلى الإسلام المستنير" وذكر من أشكال النفاق المتقن مسألة فصل الدين عن الدولة، وذلك تقليدًا لحركة التنوير في تاريخ أوروبا حيث احتكرت الكنيسة العلم، وفرضت جهلها في العلوم باسم الدين، وذلك أن الدين عندهم قد خولها ذلك، وفيما عرف بصكوك الغفران والحرمان، ولم يكن الدين هو المسيحية التي بشر بها نبي الله عيسى بحال من الأحوال.

وقد واجه عصمت سيف الدولة خصوم الشريعة الذين يتبنون المبدأ الأوروبي فصل الدين عن الدولة، بحقيقة لا ينكرها إلا الجاحدون وهي أن العبرة في مشروعية أي نظام بالقبول العام له وليس الإيمان الذي تخفيه السرائر، ولما كان أغلب الشعوب العربية مسلمين، فإن قبولهم لهذا المبدأ العلماني لا يتحقق إلا بإكراه المسلمين على الإبقاء على الإسلام دينًا للعبادة وإبعاده عن الحياة في الوطن ليخلو الوطن العربي ولينفرد به نظام لا يتفق مع الإسلام في أكثر من وجه، وهذا هو النفاق طبقًا لمعايير الصدق والكذب.

لقد كذب خصوم الشريعة على المسلمين فأخفوا هذه الحقائق ورفعوا شعار العقل والعقلانية، متهمين غيرهم بالخطر على العقل بدعوى أنهم يقدمون النص الغيبي على العلم، وهذه هي المشكلة التي كانت سائدة في أوروبا في مواجهة البابوات الذين قدموا رأيهم على أنه الدين المنزل من عند الله، إن كل هذه الانحرافات لا توجد فى شريعة الإسلام.. والمسلم الذي يتمسك بشريعة الله هذا لم يبتدع شيئًا من عنده حتى يصبح هو الوصي على الشعب المسلم، فالوصاية لله وليست لأحد من الناس.

وزعموا أن الإسلاميين يعادون العقل بتقديم النص الغيبي على العلم، وقد غالطوا في هذا كما غالطوا في غيره، فالله تعالى هو الذي قدم النص الذي أوحى به إلى نبيه، وفي ذلك أنزل الله القرآن وأوحى بالسنة فلا يجهل هؤلاء قول الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (١)

فالله هو الذي نزل النص الموحى به على عقول هؤلاء وهذا النص لا يمكن أن يتعارض مع ما توصل إليه الناس من العلوم، فهذه العلوم ليست إلا اكتشافًا لسنن الله في كونه الذي خلقه وهذه لا تتعارض مع شريعته التي أوحى بها، وهذا ما صرح به غير المسلمين ومنهم الدكتور موريس بوكاي في كتابه "دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة": "إن الذين يخادعون المسلمين بادعائهم أنهم أحرص على الإسلام ويرون أن تقديسه في إبعاده عن السياسة "أي عدم تطبيق أحكامه على الناس والدولة" هؤلاء يتفقون مع الذين يعلنون الطعن الصريح في الإسلام، ولكن يختلف السبب لدى كل مجموعة، فادعياء المحافظة على الدين يقدمون السبب المغلف والخفي وغيرهم يقدمون السبب الظاهر، وهو قول أحمد عبدالرحمن في كتابه "أساطير المعاصرين أن قطع يد السارق والإيمان بالقضاء والقدر عقيدة بدوية" ص١٤٤.

---

(١) الأحزاب: الآية ٣٦.

وهذا القول ردده محمود إسماعيل في كتابه (الخطاب الأصولي المعاصر) "١" ويوضح بحثه المقدم إلى ندوة "أزمة الفكر العربي المعاصر" التي أقامتها جامعة الكويت في ١٩٩٥/٤/٣ أن العامل المشترك للعلمانيين المتطرفين هو إعلان رفض تطبيق الشريعة الإسلامية، وفي سبيل ذلك يجرحون في هذه الأحكام ويزعمون عدم صلاحيتها للعصر الحاضر وإن نافقوا وادعوا أن ذلك يرجع إلى الحركات الإسلامية.

صدر في ذلك عدة كتب منها ("الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة" للدكتور فؤاد زكريا، "الإسلام السياسي" للمستشار سعيد العشماوي، "الشريعة والقانون" للدكتور محمد نور فرحات، "قبل السقوط" للدكتور فرج فودة، "حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية" للأستاذ حسين أحمد أمين).

ويروج هؤلاء أن تطبيق الشريعة سيؤدي إلى سلسلة طويلة من الفشل والإيذان بإلغاء عقول الناس وشيوع المذابح وتهديد كل إنجاز حضاري "٢".

ويزعم البعض أن تطبيق الشريعة الإسلامية يؤدي إلى قيام حكومة دينية على غرار ما عرفته أوروبا في القرون الوسطى، ومظالم هذه الحكومة لا يجلها أحد، فهل كان ذلك من الدين، إنه على الرغم من أن إنجيل متى "٥/٤٠ ـ ٤٢" قد نقل وصية السيد المسيح لاتباعه في قوله "من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الآخر أيضًا، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك، فاترك له الرداء أيضًا، ومن سخرك ميلاً واحدًا فاذهب معه اثنين"؟

على الرغم من هذه التعليمات التي تأمر بالتسامح والمحبة بين الناس جميعًا وهي جوهر الديانة المسيحية، إلا أن رجال الدين في أوروبا خلال العصور الوسطى، قد اكتسبوا نفوذًا ليس في مواجهة شعب الكنيسة الأعزل فحسب، بل في مواجهة الأباطرة الحكام، مما خلق صراعًا بين السلطتين، السلطة الدينية والسلطة الزمنية، وهذا الصراع قد رجحت معه كفة رجال الدين حينًا من الزمن لتحصنهم في السلطة الكهنوتية التي تخولهم صكوك الغفران والحرمان، كما خولتهم هذه السلطة الكهنوتية حق التحليل والتحريم، وبهذا أحلوا كثيرًا من المحرمات وحرموا كثيرًا من المباحات، فمثلاً أحلوا عبادة التماثيل وكانت من الوثنية والشرك بالله، كما أحلوا لحم الميتة وكانت محرمة في الكتب المقدسة.

وحرموا استخدام التخدير في العمليات الجراحية، كما حرموا البحث في علوم الطب والهندسة والكيمياء والجغرافيا وغيرها، بل حكموا بالاعدام على من خاض مجالها أو قالا قولا يخالف قول الكنيسة.

شعار (لا سيادة لفرد أو جماعة على الأمة) أول الطريق إليه

الاستبداد بين الديمقراطيات العربية والأوروبية

كثير من الأنظمة العربية التي ضمنت دساتيرها اختيار النظام الديمقراطي، وتعلن في الدساتير والمواسم السياسية أنه لا سيادة لفرد أو جماعة على الأمة.

وهذا الشعار في حقيقته يفتح الباب لاستبداد الحاكم مستغلاً الديمقراطية وما تحت يده من الأغلبية المصطنعة في صورة حزب أو لجان أو أي اسم آخر.

وحتى يتجنب الأوربيون هذا الاستبداد الذي يُمارَس باسم الديمقراطية والحرية، أكد فقهاء القانون عندهم ضرورة أن يقترن القول بالعمل.

فنجد "جون بلامناتز" يقول إن كلا المعسكرين قد يتفق على أن "الحكومة الديمقراطية" هي تلك التي تتألف من أشخاص "اختارهم المحكومون بملء إرادتهم ليكونوا مسئولين أمامهم" ولكنه يعود ليعترف بأن جدلاً عنيفاً قد ينشأ حول العناصر التي تكون "الاختيار الحر" و"المسئولية" ومن ثم يصبح تعريف الحكومة الديمقراطية بأنها حكومة مسئولة أمام الشعب الذي اختارها بملء حريته، تعريفاً غير قاطع الدلالة إلا إذا كانت المؤسسات الدستورية، وأسلوب الحكم، تضمن فعلاً الفرصة لاختيار حر، وتحقق مسئولية الحاكم أمام الشعب.

إن ضمانات منع الاستبداد بالشعوب هي الفيصل في صدق الحكومات لهذا توجد في النظم الديمقراطية الصحيحة مبادئ تحول دون استبداد الحاكم، سواء كانت معه أغلبية حقيقية أو غير حقيقية.

وأهم هذه المبادئ:

١ ـ المبدأ الأخلاقي:

الديمقراطية نظام مؤسس على المبادئ الأخلاقية العامة من احترام لحقوق جميع الأفراد الطبيعية، وضرورة التزام الحق والعدل والفضيلة عندما توضع حقوقهم الأساسية ومصالحهم الحيوية في الميزان.

فإذا حدث وانتهكت الأغلبية الحاكمة المبادئ الخلقية العامة في تصرفاتها إزاء الأقلية المحكومة انعدم بالتبعية أحد المسوغات الرئيسية لإطلاق صفة الديمقراطية على هذا الحكم، وجيفرسون رائد الديمقراطية الأميريكية يحذر من تحلل الأغلبية من مبادئ الأخلاق في معاملتها للأقلية، ويؤكد ضرورة الحفاظ على حقوقها، ويقول: "يجب أن نتذكر دائمًا كمبدأ مقدس أنه بالرغم من أن إرادة الأغلبية يجب أن يكون لها القدح المعلي في جميع الحالات، فإن هذه الإرادة لكي

تكون شرعية، يجب أن تكون صائبة وأن الأقلية لها حقوقها المماثلة، التي يجب أن تحميها قوانين عادلة".

٢ ـ تداول السلطة:

إن انتقال السلطة إلى الأغلبية في الأنظمة الديمقراطية إنما هو انتقال مؤقت له حدود زمنية معينة منصوص عليها في الدساتير، ومعنى ذلك أن السلطة يمكن أن تسحب من الأغلبية إذا هي أساءت استخدامها، لأنها بعد انتهاء فترة الحكم تعود إلى الشعب لتقدم له كشف الحساب عن أعمالها، فيمنحها الثقة أو يحجبها عنها، لهذا تصبح أقلية اليوم أغلبية الغد، والعكس بالعكس، فحكم الأغلبية ليس حكم طبقة واحدة أو حزب واحد مسيطر في جميع الأوقات وفي كل الظروف، لأنها ـ أي الأغلبية ـ تمثل سلطة موقوتة تدور بين مختلف القوى والاتجاهات دوران الزمن، ورضا الشعب أن تكون الحكومة حاكمة للشعب بالشعب ومن أجل مصلحة الشعب.

وفي ذلك يقول مؤلفا كتاب "المبادئ الاجتماعية والدولة الديمقراطية": "إنه لا يمكن إقرار إرادة الشعب بمعزل عن الوسيلة التي تستخدم، لأنها ليست إرادة طبيعية، وليست مجموعة إرادات متماثلة لأشخاص ذوي مصلحة مشتركة، بل هي نتيجة اصطناع وسيلة توزن بها بعض الإرادات ضد بعضها الآخر".

ومعنى أن يكون هذا الحكم من أجل الشعب أي يكون محققاً لأهدافه التي يمكن تلخيصها في نهاية المطاف بالاستقرار والرخاء، إذ لا معنى لأي حكم مهما كان شعبيًا أو ديمقراطيًا لا يسعى بكفاءة ووعي نحو هذه الأهداف.

وفي ضوء هذه الشروط يكون الحاكم في ظل الديمقراطية السياسية، مسئولاً أمام الشعب من حقه تأليف الحكومة أو تعديلها أو تنظيمها، وتوجيهها وعزلها طبقاً لما يراه محققاً لأهدافه ومصالحه، ولكن على الشعب أيضًا مادام قد منح الفرصة لتشكيل حكومته التي يرتضيها أن يدين لها بالطاعة والولاء، وتتسع حدود هذه الطاعة ومعاني هذا الولاء لتشمل كل التعليمات والأوامر والمراسيم والقوانين التي تصدرها الحكومة باسم الشعب، حفاظًا على غاياته.

٣ ـ عزل المكروهين ومعاقبة المفسدين

في ظل هذه الديمقراطية السياسية تكون طاعة الشعب لحاكمه طاعة اختيارية لا أثر للقهر أو الجبر فيها، لأن هذا القسر مجاف تمامًا لمعنى الرضا الذي على أساسه تقوم الحكومة أو تسقط، فالشعب المحكوم يوافق أساسًا على أن يكون محكومًا، أي أنه يختار سلطة تحكمه، قد تستخدم قوتها ضده أحيانًا،

وذلك لاعتقاده أنه من الصالح العام أن توجد سلطة أقوى، لها القدرة على تنظيم الأعمال وتوجيه الأشخاص، ولا تتوفر القدرة لهذه السلطة ما لم توافق غالبية الشعب، على الأقل على وجودها أو لا، ومدها بالصلاحيات اللازمة لتسيير دفة الأمور.

ومن هذه الصلاحيات معاقبة المخالفين وردعهم، فالسكير الذي يُخشى إذا لعبت الخمر برأسه أن يتعثر في الطريق العام ويسقط أمام العجلات، قد يطلب من رفيه أن يضربه على رأسه حتى يفيق إذا وجده قد وصل إلى هذه الحال من السكر البين، وكذلك الغريق قد يطلب إلى منقذه أن يضربه حتى يفقده وعيه إذا وجده يقاوم محاولة إنقاذه، وبجانب ذلك فإنه عند كراهية الأغلبية لأي وزير مسئول يجب عزله حتى لو لم يدان تتم إدانته قانونية.

٤ ـ عدم المساس بالرقابة القضائية

تنظم الدساتير الرقابة على القرارات والقوانين وذلك لحماية الأفراد من الاستبداد، وتكون الرقابة غالبًا للقضاء ولكن قد يعهد الدستور إلى مجلس الأمة بنوع من الرقابة السياسية باعتبار أن المجلس يمثل الشعب.

لهذا يبحث مجلس الأمة مدى دستورية مشروعات القوانين التي تقدم من الحكومة أو من بعض أعضاء مجلس الأمة، فإذا انتهى إلى عدم موافقة القانون للدستور برفض هذا القانون ولا يوافق عليه.

وقد نهى الدستور الفرنسي الصادر سنة ١٩٤٦ على إنشاء لجنة لرقابة دستورية القوانين لتبدي رأيها فيها قبل إصدارها.

كما أنشأ دستور سنة ١٩٥٨ المجلس الدستوري وعهد إليه هذه المهمة مع مهمة أخرى وهي مراقبة سلامة العملية الانتخابية وله في سبيل ذلك إيفاد ممثلين عنه من القضاة ليراقبوا الانتخابات أثناء سير العملية الانتخابية.

وأما الرقابة القضائية فهي أمر عام وطبيعي تمارسه المحاكم دون حاجة إلى نص يخولها ذلك، وهذا عن طريق امتناعها عن تطبيق القانون المخالف للدستور.

وهذه الطريقة السلبية في الرقابة على دستورية القوانين لا تمس السلطة التشريعية مباشرة فلا يصدر حكم ببطلان القانون بل يصدر بالامتناع عن تطبيقه.

ولكن الضمان الأقوى هو في رقابة الإلغاء حيث يتصدى القضاء للقرارات والقوانين ويصدر حكمه بإلغائها، وبعض الدساتير تنص على محكمة خاصة

تكون في مستوى أعلى من المحاكم العادية، سواء كانت هذه الجهة هي المحكمة العليا "النقض أو التمييز" أو كانت المحكمة الدستورية التي تنشأ لهذا الغرض.

وحتى تحقق الرقابة القضائية الغرض منها يجب عدم المساس بسلطة القضاء واختصاصه في إلغاء القرارات المعيبة.

ذلك أن بعض الدساتير العربية قد أخل بالتوازن بين السلطات لحماية قرارات السلطة التنفيذية وتجاوزاتها، من هذا الخلل (النص على عدم خضوع قرارات رئيس الدولة لرقابة الإلغاء)، فلا تملك السلطة القضائية إلغاء قرارات الرئيس المعيبة والمخالفة للقوانين، بدعوى أنها من أعمال السيادة ولا تخضع لرقابة القضاء، ومن هذا الخلل (النص على أن دور المحكم العليا في رقابة العملية الانتخابية هو التحقيق فقط، ولا تختص بإلغاء القرارات المعيبة وتُحيل ذلك إلى مجلس الأمة تحت مقولة أن المجلس "سيد قراره").

ويترتب على ذلك أن يثبت لدى المحكمة العليا التلاعب والتزوير في الانتخابات وتنتهي إلى عدم صحة عضوية بعض أعضاء مجلس الأمة، بينما يتحيز المجلس لهؤلاء الأعضاء ولا يلتفت إلى قرار المحكمة العليا.

وقد عانى كثيرون من بدعة عصمة قرارات رئيس الدولة، فمن ضحايا هذه البدعة فصل بعض القيادات بل وسجن آخرين، وكل جريمتهم أن رفضوا السماح بالتصريح لكميات من الأدوية بناء على تقرير من الجهات الفنية بعدم صلاحية تداولها لأن صلاحيتها أوشكت على الانتهاء.

كما ابتليت شعوب ببدعة ومقولة "المجلس سيد قراره" فظل النواب الذين نجحوا بالتزوير يمثلون الأمة ويتمتعون بالحصانة.

إن العصمة التي خولتها بعض الدساتير لرؤساء الدول تحت مقولة "إن قرارات الرئيس من أعمال السيادة فلا تخضع لرقابة القضاء"، والعصمة التي خولتها بعض الدساتير لمجلس الأمة تحت مقولة "المجلس سيد قراره"، هذه تعيد الأمة إلى نظرية الحق الإلهي التي كانت للحاكم وأبطلها الإسلام.

الإسلام والحق الإلهي المقدس

إن الاعتقاد بألوهية الحاكم نشأ في المجتمعات البدائية كما هو معلوم في التاريخ، فكان فرعون يستدل على ألوهيته في الحكم بقوله: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ﴾ وبقوله: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ ولكن بعد غرق فرعون مصر على يدي نبي الله موسى زالت فكرة ألوهية الحاكم،

ولكن عادت هذه من جديد بعد عصر بولس الرسول، فكانت صكوك الغفران والحرمان التي يمارسها البابوات على الشعب وعلى الحاكم، تجعل الناس يصدقون الكنيسة عند تركها السلطة الزمنية أي الدينية للحكام، حيث جعلت سلطة الحاكم مستمدة من الله مباشرة، وهذا عرف باسم الحق الإلهي المباشر الذي جعل البابا ليون الثالث عشر يقرر أن الحاكم يستمد سلطته من الله مباشرة.

وبعد الصراع بين الكنيسة والإمبراطور تطور هذا المفهوم فقالت الكنيسة بنظرية الحق الإلهي غير المباشر، ومقتضاه أن السلطة ممنوحة للحاكم عن طريق الشعب ولكن بتوجيه من الإرادة الإلهية غير المباشرة التي وجهت الشعب لاختيار الحاكم.

ثم تطور هذا نتيجة إصرار الأباطرة على أنهم يستمدون سلطتهم من الله، ولا يمكن أن يكونوا مسئولين أمام الشعب، وقد أدى هذا الانحراف إلى ردود فعل كبيرة منها نظرية العقد الاجتماعي التي نادى بها "جان جاك روسو" و"توماس هويز" ومؤداها: أن السلطة السياسية جاءت نتيجة عقد واتفاق بين الحاكم والشعب ينوب فيه الحاكم عن الشعب، ولقد كان مفهوم العقد الاجتماعي عند "لوك" أكثر تقييدًا لسلطة الحاكم يشير إلى أن العقد بينهما يتضمن التزامًا على الحاكم إذ بعدم المساس بالحقوق الطبيعية للإنسان.

ولقد كان رد الفعل النهائي في أوروبا هو الديمقراطية، ومؤداها أن الشعب هو الذي يختار السلطة الحاكمة، فإذا استمدت سلطتها من غير الشعب كانت سلطة غير شرعية، وهذه الديمقراطية تخول الشعب عن طريق من يمثلونه في البرلمان أن يضع ما يشاء من التشريعات.

طبيعة الحكم الإسلامي

الإسلام يجعل التشريع من عند الله وهو تشريع قد اكتمل في القرآن والسنة النبوية فلا يملك حاكم أو محكوم أن يضع تشريعًا يخالفهما.

والحاكم يختاره الشعب ومهمته تنفيذ شرع الله، وهو التشريع سالف الذكر فالحاكم ليست له حقوق وسلطات الحاكم في النظام الديمقراطي، فلا يوجد في النظام الإسلامي ما عرف باسم "سلطات رئيس الدولة" بل يوجد واجبات الخليفة.

وطاعة الحاكم في الإسلام مقيدة ومشروطة بالتزامه بالقرآن والسنة، للحديث النبوي: "إنما الطاعة في المعروف لا طاعة في معصية"، قال الماوردي: "إذا تكاملت فيه شروط العدالة تجوز بها شهادته وتصح ولايته، فإن انحرم منها وصف منع هذه الشهادة والولاية فلم يسمع له قول ولم ينفذ له حكم".

وقال الإمام ابن حزم الأندلسي: "فهو الإمام الواجب طاعته ما قادنا بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فإذا زاغ عن شيء منهما منع من ذلك وأقيم عليه الحد والحق، فإن لم يؤمن أذاه إلا بخلعه خلع وولي غيره، والحكم الإسلامي من أهم خصائصه أن يكفل الحريات العامة للإنسان، وأهمها الحرية الشخصية وحرية التنقل وحق الأمان وحق السكن وحرمته، وحرية العقيدة والفكر وحرية التملك وحرية العمل، مع ملاحظة أن حرية العقيدة والفكر هي لغير المسلم أما المسلم فيلتزم بالإسلام.

إن هذه الطاعة للحاكم هي في حقيقتها طاعة لله الذي أمرنا باتباع هذا التشريع، وطاعة من التزم به، قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [1].

الردة وضمانات الحقوق والحريات

قد يظن البعض أن عقوبة الردة في الإسلام تتنافى مع ضمانات الحقوق والحريات، وهذا الفهم قد تجاهل أن الإسلام لا يعاقب المرتد لردته بل لما يصدر عنه من التصريحات والبيانات التي تدخل في باب الموالاة والمناصرة لأعداء الدين والأمة "أي أعداء الدين والوطن"، ومثل هذا العمل إذا ارتكب في حق الشعب أو الوطن كان خيانة وعقوبته الإعدام، بينما المرتد قد خان الدين والشعب والوطن.

إن أول من ابتدع هذه الخيانة هم اليهود في حربهم للنبي ﷺ بأن طلبوا من اتباعهم أن يؤمنوا وأن يعلنوا دخولهم في الإسلام ثم يتحولوا عنه ويرجعوا إلى دين اليهودية، بدعوى أنه قد ثبت لهم أن اليهودية هي الدين القيم وأن الإسلام سحر وكهانة، ولقد نزل في هؤلاء قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [2].

إن خطورة هؤلاء أنهم فترة إسلامهم كانوا يعرفون أخبار النبي والمؤمنين، ولما عادوا إلى دار الكفر أخبروا اليهود بأسرار النبي ومن معه من المؤمنين، فهم بهذا يفشون أسرار المؤمنين إلى أعدائهم، وخطورتهم على الإسلام ودار الإسلام أنهم بهذا يحدثون بلبلة في صفوف المؤمنين، محاولين بث بذور الشك في الإسلام وتحريض على الخروج منه وموالاة أعدائه، وبالتالي أن يصبح الولاء لغير الوطن الذي يقطنون فيه، لهذا كانت عقوبة هؤلاء هي القتل، فقد روي الشيخان أن النبي ﷺ قال: "من بدّل دينه فاقتلوه".

---

(١) النساء: الآية ٨٠.

(٢) آل عمران: الآية ٧٢.

وللشيخين أيضًا في حديث أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: "اذهب إلى اليمن، ثم اتبع معاذ بن جبل. فلما قدم ألقى له وسادة وقال: وإذا رجل عنده موثق قال: ما هذا؟ قال: كان يهوديًا فأسلم ثم تهود قال لا أجلس حتى يقتل قضاء الله ورسوله".

وفي رواية الإمام أحمد قال معاذ: "قضى الله ورسوله أن من رجع عن دينه يقتل" وأن قتل من بدّل دينه يرجع إلى أنه بهذا يخون دار الإسلام وعقيدته، وهذا الحكم اليوم قانون عام لجميع الدول الحديثة، إذ تقضي قوانين العقوبات فيها بإعدام من ارتكب عمدًا فعلاً يؤدي إلى المساس باستقلال البلاد أو وحدتها أو سلامتها أو فعل فعلاً يؤدي إلى المساس بأمن الدولة ومقوماتها الرئيسة.

كما تقضي القوانين بإعدام كل من سعى لدى دولة أخرى للإضرار بمركز البلاد الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي.

وهذه القوانين لا يعترض عليها أحدًا من اتباع اليمين أو اليسار في الوقت الذي بدأوا يطعنون في الإسلام، وهم يتكلمون باسمه ويرتدون ثيابه فقالوا إن عقوبة المرتد في الإسلام لا تتفق مع حرية الاعتداء على أمن دار الإسلام والمقومات الرئيسية لها وهي العقيدة، بينما لا تجد اعتراضًا من هؤلاء على قتل من ساعد على المساس بأمن البلاد الأخرى للإضرار بمركز بلاده طالما كانت لا دينية وكان حماية الفساد في الأرض وإشاعة الفواحش هي الغاية، وبالتالي تصبح اللادينية حضارة إنسانية، أمّا حماية الإسلام ومقوماته فتصبح وحشية وهمجية، فهل الإيمان بالله أن يعترض المؤمن على عقاب من سعى إلى هدم الإسلام ودار الإسلام وإفشاء أسرارها، في الوقت الذي يُحبَذ فيه مُعاقبة من فعل ذلك في العقيدة الأخرى والوطن الآخر اللادينية.

دور الوطنية والقومية في هدم الدين والقيم

اقترن ضعف الخلافة العثمانية وظهور المخطط البريطاني الفرنسي بتوزيع تركتها بين الدولتين، واقترن ذلك بظهور حركة انبعاث داخل الأمة العربية تحاول جمع العرب تحت راية وقيادة وطنية لحماية هذه الأمة من المخططات الاستعمارية التي تهدف إلى تقسيم تركة الرجل المريض وهو الدولة التركية أو الخلافة العثمانية.

كان السلطان عبدالحميد سباقًا في رفع راية الوحدة الإسلامية في مواجهة القوميات التي غرستها بريطانيا في العالم العربي ما بين القومية المحلية كالمصرية والبربرية والطورانية، وما بين القومية الإقليمية كالقومية العربية والكردية[1].

يقول الأستاذ البرت حوراني "تردد معظم الكتاب المسيحيين في التحدث عن "أمة عربية" إذ أنهم تخوفوا من أن تؤدي القومية العربية إلى نوع جديد من أنواع التسلط الإسلامي، ولم يكن في مقدورهم إزالة هذا التخوف إلا بإحدى طريقتين: الأولى أن يحاربوا الأكثرية، شأن الأقليات أحيانًا، ولو أثار ذلك بعض الالتباس، والثانية أن يتخيلوا مفهومًا للعروبة على غرار مفهومهم للبنان أو لسوريا فيحلموا بأمة عربية منفصلة عن أساسها الديني، وتضم جميع المسلمين والمسيحيين دون أي تفرقة بينهم، وتتمتع بحماية رؤوفة من قبل الدول الأوروبية ذات النظم الحرة، وهذه الطريقة الثانية هي التي اختارها نجيب عازوري ورفاقه، وهم يرون أن حدود الأمة العربية تشمل البلدان الناطقة بالضاد في غربي آسيا، دون مصر وبلدان شمالي أفريقيا التي كانت واقعة خارج نطاق اهتمامهم القومي العربي المسيحي.

موقف الاستعمار

كان هدف الاستعمار هو توزيع تركة الرجل المريض، وقد ظهر هذا في اتفاق سايكس ـ بيكو الذي وزعت بموجبه فرنسا وبريطانيا البلاد العربية فيما بينهما، وكان هدف دعاة الجامعة الإسلامية هو معارضة هذا التوزيع وإحباط هذا المخطط، لهذا هاجم اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر حركة الجامعة الإسلامية هجومًا عنيفًا في تقريره السنوي عن مصر لسنة ١٩٠٦ والذي رفعه إلى وزارة الخارجية البريطانية، فقال عنها إنها حركة ترمي إلى تحدي الدول المسيحية، وأنها حركة قائمة على بث البغضاء والتشاحن الجنسي والديني، واستطرد فقال إنها حركة تقوم على إحياء النظم والمبادئ التي وضعت منذ أكثر من ألف عام لإرشاد وتوجيه مجتمعات بدائية، وهي مبادئ تنطوي على الاعتراف بالاسترقاق، وإن هذه المبادئ لم تعد ملائمة للوقت الحاضر أو مناسبة للآراء الحديثة، فضلاً عن أنها تركز القانون المدني والجنائي والديني في قالب واحد، مما أدى إلى جمود وتخلف جميع البلاد التي اعتنق أهلها الدين الإسلامي.

كانت هذه الآراء التي بسطها لورد كرومر تنم عن تعصبه الديني الصارخ وضيق أفقه العقلي، وعدم فهمه للتيارات الدينية والفكرية التي كانت تسود العالم الإسلامي في ذلك الوقت، كما تدل على تأصل نزعته الاستعمارية في تفكيره، وكراهيته الشديدة لكل المحاولات التي تقف في وجه الزحف الاستعماري الأوروبي

(١) نشر في الأنباء بالعدد ٧٩٢٦ في ١٩٩٨/٦/١١.

على العالم الإسلامي، فكان كرومر في هذا الصدد على شاكلة غالبية المستشرقين الذين اتخذوا من العلم ستارًا للتهجم على الدين الإسلامي والمسلمين، وكان كرومر في رأي المؤرخين الإنجليز من بناة الإمبراطورية البريطانية وأحد أعلام الإنجليز في مجالات الاستعمار والحرب والحكم والسياسة والاقتصاد، وذهب هذا الفريق من المؤرخين إلى أن على أوروبا أن تفخر بكرومر لأنه أدى رسالة الحضارة الأوروبية خير أداء في الشرق ومصر.

وقد تصدى الأستاذ محمد عبده للرد على اللورد كرومر مدافعًا عن الدولة العثمانية وعن السلطان عبدالحميد وعن حركة الجامعة الإسلامية، فقرر في مقال نشرته جريدة المنار أن الدولة العثمانية هي أكبر دول الإسلام، وأن عبدالحميد هو أعظم سلاطين المسلمين، ونفى عن حركة الجامعة الإسلامية صفة التعصب الديني كما هاجم المستشرق البريطاني مارجليوث Margliouth حركة الجامعة الإسلامية هجومًا عنيفاً في محاضرة ألقاها في الجمعية الآسيوية في لندن سنة ١٩١٢ وأرجع إلى الإسلام التخلف والجمود وسوء الحكم وانعدام الأمن في البلاد الإسلامية التي لا تتمتع بالحماية الأوروبية.

بعث القومية العربية

لم تكن حركة القومية العربية واعية للمخطط المشار إليه، يستوي في ذلك من رفع لواء الإسلام من دعاة القومية العربية مثل الشريف حسين، ومن رفع لواء العلمانية مثل ساطع الحصري ولطفي السيد، والإسلام برسالته العالمية لا يعادي القوميات ولكن بعض العرب قد انحرف بمفهوم القومية بما يجعلها تتعارض مع الإسلام بل لتكون بديلاً عنه، وهو ما كان يشجعه الاستعمار الأجنبي، من ذلك الدكتور محمد أحمد خلف الله الذي ارتدى مسوح الرهبان في مقالته بالوطن وبمجلة العربي وتظاهر بالدفاع عن الإسلام، إلا أن أقواله ومذكراته في الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، تظهر حقيقة الأمر الذي لا يقبل منه أن يتحدث عن الإسلام أو باسمه كعالم ومفسر.

لقد نشر هذا المركز كتابًا باسم "القومية العربية والإسلام" صدر عام ١٩٨١م يظهر هذه الحقيقة حيث جاءت فيه أقوال للدكتور محمد أحمد خلف الله تعقيبًا على من يربط القومية العربية بالإسلام ومنها قوله:

١ - أن هذا يؤدي إلى أن يتنازل أصحاب القومية العربية عن استقلالها عن الإسلام، وهذا الأمر لا يمكن التنازل عنه وإلا أضاع القوميون الجزء الأكبر والمهم من مقومات القومية، وهما اللغة والتاريخ، وهذا القول يفيد

عدم استقلال القومية العربية عن الإسلام، فهل يلتزم أصحابها بأخلاقه وتشريعه وأحكامه؟.

٢ - وقال كما يطلب منهم الربط بين الإسلام والقومية العربية أن يتنازلوا عن العلمانية وهو الآخر لا يمكن أن تتخلى عنه القومية العربية، فلا التزام بالإسلام.

ثم يقول الدكتور خلف الله "إن مُمارسة الحياة على أساس من العلمانية (أي اللادينية) يمنح المجتمع حرية وانطلاقًا في تحقيق الصالح العام على أساس من الحضارة العلمية أكثر مما يمنحه الإسلام[1]"، والمصلحة هنا هي اللادينية.

فهذا الاتجاه حقيقته أبعد ما يكون عن القومية العربية لأنه لا يوجد أي تعارض بين الإسلام والعروبة.

واللادينية التي يريد هؤلاء وصم القومية العربية بها ليست من العروبة أو القومية في شيء، بل هي من وسائل الاستعمار لتمزيق الأمة العربية بين فئات متناحرة من العرب والأكراد والبربر، وأيضًا فإن القيم الإسلامية التي يريد هؤلاء تعرية العرب منها هي قيم إنسانية خالدة وردت في جميع الديانات المنزلة من عند الله.

إن الفهم الخاطئ للإسلام وللوطنية والقومية يؤدي إلى ادعاء التعارض بين الإسلام والقومية أو الوطنية، وهو ما سعى فلاسفة الاستعمار إلى غرسه بين بعض رواد الحركة الوطنية والقومية.

لقد كان الفهم الانطوائي للوطنية هو الاستمرار الطبيعي أو هو التطور الطبيعي لدعوة حزب الأمة، ولذلك كان رأي أحمد لطفي السيد في الجامعة العربية بعد الحرب شبيهًا برأيه في الجامعة الإسلامية قبل الحرب، فهو يقول في مجلة "الهلال" نوفمبر سنة ١٩٣٨: إن السعي لتأليف تحالف من هذا النوع وهم من الأوهام" ويرى أن الداعين له يضيعون من الوقت في خيال عقيم وأحلام بعيدة التحقيق.

وعندما احتلت إيطاليا ليبيا جمعت الحكومة المصرية ستة آلاف جنيه ورقي ومثلها جنيه ذهبي لتقديمها إلى الأشقاء الليبيين، وأرسل بعض المصريين أطباء لإسعاف المصابين واشترك في صفوف الجهاد بعض المجاهدين المصريين منهم عزيز باشا المصري وعبدالرحمن باشا عزام، فأخذ لطفي السيد يندد بهذه الأعمال ويزعم

---

(١) كتاب "القومية العربية والإسلام"، ص٥٥.

أن هؤلاء بلهاء، وتبنى في صحيفته الجريدة الهجوم على مساعدة ليبيا وكشف النقاب في مقالاته عن أنه ميكافيللي المعتقد فكان عنوان المقالات "سياسة المنافع".

إلى جانب هذه النزعات الشعوبية الحادة للجامعة الإسلامية برز دعاة مخلصون لم يبخلوا على دينهم ودعوتهم، ولم يجرهم التيار الجديد، وكانت صحيفة المنار هي لسان هذه الدعوة بعد الحرب، فيقول صاحبها محمد رشيد رضا "يناير ٢٣جمادى الأولى سنة ١٣٤١ فاتحة المجلد الرابع": "إن المنار إنما أنشى لإيقاظ الشرق وتجديد الإسلام بإعادة تكوين الأمة وحياة الملة والدولة لا لجدلية المذاهب الدينية ولا لتأييد القضايا الجنسية".

ويتكلم شكيب ارسلان في مقاله الذي قدم فيه لترجمة كتابه "حاضر العلم الإسلامي" فيقول: "فإن نهوض الشرق هو الشرط الأول في سؤدد الإسلام وراحة الأنام وحظر الدماء الحرام".

والجدير بالذكر أن طه حسين حمل لواء الحرب على الإسلام خلفاً لأستاذه لطفي السيد، فكتب أن مصر قد استعمرها الفرنسيون واليونان والعرب فأعقبهم الإسلام استعمارًا، بينما كانت مصر آنذاك تحتلها بريطانيا ولم يندد بهذا الاحتلال، لهذا حمل الشيخ حسن البنا لواء الدفاع عن الإسلام بعد الشيخ محمد رشيد رضا وأنشأ جماعة الإخوان المسلمين في سنة ١٩٢٨م على النمط السلفي، وفي الجانب الآخر تأسس حزب شيوعي سري برئاسة المليونير اليهودي هنري كوريل، وبجانب التبشير الأميركي الذي كان يغزو البلاد المصرية والعربية، كانت هناك فلسفة البراجماتية التي نادى بها الأميركي "وليم جيمس" وهي لا تهتم بالفكر بل بحالات الفعل المرتبطة به.

الوطنية الكاذبة

إن دعاة الوطنية الضيقة لم يدركوا أن الإنجليز هم وراء هذه الدعوات النتنة، فرجلهم الأول "لورانس" يقول في كتابه "أعمدة الحكمة" كنت أتجول في الشام ومصر ولا أجد من الناس سوى التمسك بالإسلام في كل أمور الحياة وأتطلع إلى أن تحل الوطنية والقومية محل هذا الدين، وأقول متى نجد مصر تتغنى بفرعونيتها وهكذا سائر البلاد العربية؟.

وما تمناه لورانس حققه رواد الوطنية الضيقة والقومية اللادينية، الذين روجوا لأنفسهم أنهم حماة الوطن من الاستعمار حتى لُقب لطفي السيد "بأستاذ الجيل"، وساطع الحصري "بالأب الروحي للعرب والقومية العربية"، وطه حسين "بعميد الأدب العربي".

يقول العلامة محمود شاكر في كتابه "أباطيل واسمار": فبعد فترة بدأت دعوة "مصر للمصريين" معارضة لمبدأ مصطفى كامل، وأحيطت هذه الدعوة بكل الوسائل المثيرة، التي يكون ظاهرها إنقاذ الوطن من براثن الاستعمار الأجنبي، بما فيها تركيا هكذا يقولون، وباطنها تثبيت القواعد الفكرية التي تحمل الشباب المصري على ألا يرى شيئًا يربطه بشيء من البلاد التي تحيط به سوى ظل باهت من الروابط الدينية واللغوية التي فرضت عليه فرضًا، كما قال ذلك بعضهم فيما بعد، ثم يرى أن مرده كله إلى مصر وحدها، وإلى تاريخها القديم العريق في الآباد البعيدة، وهو تاريخ الفراعنة الحافل بالآثار القائمة، والتي يأتي السائحون من كل أوروبا لرؤيتها أو دراستها.

ويقول محمود شاكر: لقد تولى كبر هذه الدعوة بلا إطالة في الرد عليها أو تفسيرها، رجل ولد في سنة ١٨٧٢ وأتم تعليمه الابتدائي في عهد الاحتلال سنة ١٨٨٥ وتعليمه الثانوي سنة ١٨٨٩ ونال شهادة الحقوق في سنة ١٨٩٤ ثم تولى تحرير الجريدة "التي كانت شركة مكونة من محمد محمود، وعمر سلطان، وأحمد حجازي، ومحمود عبدالغفار، وهي أسماء لها أثر في بعض تاريخنا السياسي، وهذا الرجل هو: أحمد لطفي السيد". وهذا الرجل عندي شديد التناقض ينبغي أن يعاد درسه ودرس تاريخ نشأته ونشأة أسرته، وتفاصيل حياته بدقة متناهية وبحذر بالغ.

لقد طالب دعاة الوطنية الضيقة بما لم يستطع الإنجليز الإعلان عنه وهو تطوير التعليم ليكون أوروبيًا في مضمونه وأهدافه، وكذلك تحرير المرأة العربية من القيم الإسلامية بدعوى أنها قيم بالية.

ولقد تم اختيار سعد زغلول لهذه المهمة بعد أن أضفيت عليه بطولات مصطنعة، فعند عودته من منفاه كان في استقباله الرجال والنساء، فلم يلتفت إلى الرجال وتحول نحو سرادق النساء، فاستقبلته هدى شعراوي وهي محجبة كسائر نساء عصرها، فرفع بيده الحجاب وأعلن تحرر المرأة المصرية منه، لهذا كان هذا النوع من الوطنية حليفًا للإنجليز، وهذا أيضًا هو السبب في تنصيب سعد زغلول باشا وزيرًا للمعارف.

يقول اللورد لويد المنتدب السامي السابق في كتابه الذي ألفه سنة ١٩٣٣: إن التعليم الوطني عندما قدم الإنجليز إلى مصر كان في قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين، فلو أمكن تطوير الأزهر عن طريق حركة تنبعث من داخله هو لكانت هذه خطوة جليلة الخطر، ولكن إذا بدا هذا الأمل غير متيسر تحقيقه فحينئذ يصبح الأمل محصورًا في إصلاح التعليم اللاديني الذي ينافس

الأزهر حتى يُتاح له الانتشار والنجاح، وعندئذ سوف يجد الأزهر نفسه أمام أمرين فإما أن يتطور وإما أن يموت ويختفي.

هذه المحاولات قد فشلت كما هو شأن ما سبقها وما جاء بعدها، ذلك أن فكرة تطوير الدين دعوة ضالة فاسدة لأن وظيفة الدين إصلاح المجتمع ورده إلى الطريق المستقيم، فإذا زعم زاعم أنه يجب أن يتطور ليلائم كل عصر وكل بيئة، فقد أفقده وظيفته لأنه سيصبح تبعًا لأهواء الناس ينقاد لها بدلاً من أن يقودها، وكونها ضالة لأن الاعتقاد والتسليم بها ينتهي إلى الكفر.

في سنة ١٩٢٧ عرض قانون الأحوال الشخصية على مجلس النواب وطالبت الصحف بتعديله بما يناسب العصر بإلغاء الطلاق وحظر تعدد الزوجات، وأحال المجلس القانون إلى لجنة تأثرت بأقوال الصحف، واجتمعت لجنة من علماء الأزهر أصدرت بيانًا تستنكر فيه مشروع اللجنة التي شكلها مجلس النواب لهذا الغرض.

ولقد نشر في تركيا المهزومة كتاب يندد بالقيم الإسلامية، فكتبت مجلة المنار نقلاً عن كتاب "قوم جديد" زعمهم الصيام والصلاة والحج والزكاة والعمل بكتب الفقه والأئمة أنه دين قدماء المسلمين، وعبر عنهم "قوم عتيق" ووضع في مقابل ذلك أركان دين "قوم جديد" وهي العقل وكلمة الشهادة والأخلاق الحسنة والجهاد، تحت امرة أنور ورضا وأسعد وجاويد ورؤوف صلى الله عليهم وبقية رجال جمعية الترقي المقدسة[1]"، وجاويد يهودي وكان وزيرًا للمالية في حكومة الاتحاديين.

(١) المنار، ١٩٢٦/٨/٢٩- ١ شوال سنة ١٣٣٤.